الكوبرا تصنع العسل

رواية

الدكتور أحمد زياد محبك

الكوبرا ...تصنع العسل

رواية

دار القلم العربي . حلب

١٩٩٦

العنوان: الكوبرا تصنع العسل
النوع: رواية
المؤلف: الدكتور أحمد زياد محبك
رقم الهاتف والواتس أب: ٠٠٩٦٣٩٤٤٩٢٨٧٩٢
البريد الرقمي: mohabek@gmail.com
منشورات دار القلم العربي . حلب
الطبعة الأولى: ١٩٩٦
الغلاف: للفنان مطيع يازجي

كتبت هذه الرواية في شهر أيار عام ١٩٩٤
بمدينة سبها في ليبيا
وكان المؤلف مُعارًا للتدريس في جامعة سبها

أبحث عنك في ملاءة المساء
أراك كالنجوم
مشوقة للوصل والمسامرة
ولاقتراح الخمر والغناء

أبحث عنك في العطور القلقة
أبحث عنك في الخُطى المفارقة
يقودها إلى لا شيء لا مكان
وهم الانتظار والحضور والغياب

أبحث عنك في مفارق الطرق
واقفة ذاهلة في لحظة التجلّي
منصوبة كخيمة من الحرير
يهزها نسيم صيف دافئ

أبحث عنك في محطات القطار والمعابر
في الكتب الصفراء والبيضاء والمحابر
وفي حدائق الأطفال ... والمقابر
آوي إلى بيتي في الليل الأخير
أنتظر انبثاقك البغتة كالحقيقة
يا وردة الصقيع

*

وأورق اليقين
أن مستحيلاً قاطعاً كالسيف
لقاؤنا
إلا للمحة من طرف

صلاح عبد الصبور

- ١ -

أضع سماعة الهاتف بهدوء، والزميلات منهمكات بالضرب على الآلات الكاتبة.

لا بُدَّ في كلِّ يومٍ من إزعاج جديد، أتوقع ذلك، هكذا تمضي حياة الموظف، إن كان يصح حقيقة أن نطلق على ما يعيشه اسم "حياة"، بعد هذا العمر أصبح ذلك معروفاً عندي، ولكنه لم يصبح في حكم المألوف.

أعود إلى تدقيق كتاب أمامي، أحاول ألا يظهر على وجهي شيء من علامات الاستياء. وكيف لا أستاء؟ هو لا يدعوك إليه بنفسه، بل يطلب من السكرتيرة أن تفعل، لا بأس، هذا خيرٌ من أن يصبَّ في أذنك صوته الأجش الغليظ، فرقٌ كبيرٌ بين دماثتها وغلظته، لو تكلم هو لَما نطق بغير كلمة واحدة: "**أستاذ رياض أريدك في مكتبي فوراً**". عاصرت في هذه المديرية خمسة مديرين، ولكن لم أجد مثله في الفجاجة. ولكن ماذا عساه يريد مني؟

وأنهض، أنظر إلى ساعة يدي، ثم أقول للزميلات، وأنا أعبر المكتب:

- **الساعة الآن الواحدة والربع، أرجو إنجاز بريد الساعة الواحدة، ريثما أرجع، أنا ذاهب لمقابلة السيد المدير.**

وأمضي في البهو.

لعلي سهوت عن خطأ أو خطأين في أحد الكتب؟ عمل يوم السبت دائماً ثقيل وممل، أكثر من ستين صفحة أنجزنا هذا اليوم، وعند الساعة الواحدة يأتي بريد المدير حاملاً عشرة كتب مستعجلة، ولا بُدَّ من إنجازها قبل نهاية الدوام، ولكن لا يعقل، دققت الكتب كلها بنفسي، لا يمكن أن يمرَّ أي خطأ، وليس من عادته أن يطلبني، لعلي لم أدخل مكتبه منذ أربعة أشهر، منذ تقديمي طلب الاستقالة، هل يعقل أن يكون قد وقع على كتاب انفكاكي من العمل؟ هل وصلت إليه موافقة

السعودية على طلبي العملَ فيها؟ هل يريد أن يبلغني الموافقة بنفسه؟ لا بُدَّ من أن تستاء، لا لشيء، إلا لأنه المدير، ولو أنه أخوك، مجرد اتصاله بك وطلبه منك أي شيء، ولو كان وردةً، أمرٌ مزعج، لا أعرف لماذا يترسخ هذا الشعور في نفسي، حاولت مرات كثيرة نزعه، فلم أفلح.

وأرقى الدرج إلى مكتبه.

ومع ذلك، لا يمكنني كرهه أو الحقد عليه، هو الذي رفع إلى السيد الوزير طلبي الاستقالة، كان بإمكانه ألا يرفعه، ولكن، عندما رجع كتاب السيد الوزير بالموافقة، ربط موافقته على انفكاكي من العمل بوجود بديل، موقفه قانوني، من غير شك، ولكنّه مزعج، ولقد صارحته بأني متقدِّم بطلبٍ للعمل في السعودية، فأجاب: " **إذا جاءت الموافقة على العمل فسوف ننظر في أمر الانفكاك** "، قلت له مؤكِّداً: "**سأعتبر هذا وعداً منك**"، لذلك، لا أستطيع الحقد عليه، ولكن لا أعرف لِماذا أشعر دائماً...

– **أهنِّئك أستاذ رياض.**

الصوت يرنُّ فاقعاً، إسماعيل يهبط على الدرج، أتوقف، ألتقط أنفاسي، وأردّ:

– **أهلاً أستاذ إسماعيل.**

– **أكرِّر تهنئتي لك.**

– **أشكرك، ولكن، ما المناسبة؟**

– **وداد ستنتقل إلى مكتبك.**

– **وداد؟**

– **إي، نعم، وداد، ماذا بك؟ أنت لا تصدق من الفرحة؟ هيا، منذ الغد اصبغ شعرك، ولا تنس الحبوب المنشِّطة.**

– **لا يا أستاذ إسماعيل.**

ويتركني، ويمضي هابطاً على الدرج، وصوته الفاقع لا يزال يرن:

– لا تقل: لا، الآن ستراها عند المدير، هي بانتظارك، وغداً سنرى.

كأنه يريد إسماع كلِّ من في المديرية، لا بُدَّ أنه خارجٌ للتوِّ من مكتب المدير، وهو من غير شكٍّ الذي وسوس إليه لنقل وداد إلى مكتبي، استيائي يتفاقم، إسماعيل هكذا دائماً، سليط اللسان، يلقي كلامه ويمضي، لا يترك لك فرصة للحوار، بل لا يقبل الحوار، مرة واحدة فقط سألته فيها عن وداد، منذ شهرين أو أكثر، وهو إلى اليوم لا ينسى، كلّما لقيني قال لي: "**قريباً ستنتقل وداد إلى مكتبك**"، حتى إنّني قلت له مرة محتداً: "**الأفضل طي هذا الموضوع**"، ولكن، لا فائدة، "**وداد ليست لي ولا لك، ليست لأمثالنا من الشيوخ والعجائز، أو الموظفين الصغار**"، وصمتُ، أخذ رشفة من قهوته ثم أضاف: "**وداد للشباب، أو للمديرين وأصحاب المناصب**"، هكذا بدأ الكلام، وأنا في مكتبه أرشف القهوة، كان سؤالاً عارضاً، ولكنه انطلق يتكلم: "**أنت لا تعرف، على كلِّ حال اطمئن، ذات يوم ستنتقل إلى مكتبك، فقط انتظر**"، رددتُ عليه: "**لعلي أخطأتُ حين سألتك عن وداد**"، أجاب: "**لا، لم تخطئ، الكل يسأل عنها، حتى كثير من المراجعين سألوني عنها**"، وغمز بعينه، ثم أضاف: "**هذه هي حال المطلَّقة، لا ترحم نفسها، فلا يرحمها أحد**"، وصمت، ثم مال نحوي، وتكلم كمن يهمس، ولكن صوته كان يجلجل: "**تزوَّجت من شاب طيب، موظف مثلها، زميلها في المديرية، مديرية التصدير، ولكنها عشقت المدير، وطلقت زوجها**"، تركت فنجان القهوة، ونهضت قائلاً: "**وكيف عرفت هذا كله؟**"، ردَّ ضاحكا وهو يودعني: "**أنت لا تعرف، سيرتُها على كل لسان**".

منذئذٍ بدأت أكرهه، بل لعلي بدأت أكره منذ سنتين، حين انتقل رئيس الدائرة السابق إلى مديرية أخرى، فحلَّ هو محله، رئاسة الدائرة لم تَعْنِ بالنسبة إليه سوى مراقبة الموظفين والتجسس عليهم ونقل أخبارهم إلى المدير، كلَّ يوم لا بُدَّ من أن يرفع تقريراً شفوياً عن حركة

الموظفين، سعيد سيستقبل ضيوفاً من خارج المديرية، عادل يخرج كلَّ يوم من المديرية لِمدة ساعة لشراء حاجات لِمنْزله القريب، منى يزورها خطيبها كلَّ يوم، هيام في خصام مع زوجها وهي على وشك الطلاق، صالح كما هو مريض دائماً، رياض، لا أظنه يتورَّع عن الكلام عليَّ، مع أننا زميلان، بل صديقان، منذ ما يقارب الثلاثين عاماً، دخل بيتي ودخلت بيته، وأكلنا معاً من طعام واحد، هو أقدم زميل في المديرية، وهو صديقي الوحيد فيها، عُيِّنَ بعدي بسنتين، لم يبق من جيلنا القديم سوى إسماعيل وأنا.

أُطِلُّ عليه من أعلى، وهو يهبط على الدرج، أراه أقصر مِمّا هو عليه في الواقع، وأكثر بدانة، يبدو لي مثل كرة تتدحرج، شعره المصبوغ بالأشقر المائل إلى الحمرة مصقول بعناية، وأنفه المعقوف يبدو لي ناتئاً بحدة، كأنه الحجل، لا أعرف لماذا أراه على هذه الصورة؟ كم كنت أحبه؟ ولكن لا أعرف كم تغيَّر الآن؟ فجأة اكتشفت عيوبه كلها، حتى شعره المصبوغ وصوته المجلجل وميله إلى اللجاجة والجدل، كل ذلك كنت أراه لائقاً به، بل أراه دليل ذكاء وقوة، ولكن، كم أراه الآن سمجاً؟

وازداد كرهي له عندما انتقلت وداد إلى مديريتنا، قبل ثمانية أشهر، انتقلت من مديرية التصدير إلى مديريتنا، بوظيفة ضاربة آلة كاتبة، ولكنَّ المدير رفض تعيينها في الوظيفة التي نُقلت بها، عيّنها في مكتب إسماعيل، المدير طلب منها الإشراف على دفتر الدوام، ولكن إسماعيل أراد تحويلها إلى سكرتيرة خاصة به، وهي عنيدة، هكذا وصفها إسماعيل، وهكذا حدثني عنها هو نفسه. بعد نحو الشهرين صدرت مذكرة عن المدير بنقلها إلى أمانة المستودع، ومنذئذ بدأ إسماعيل يدعوني كلَّ يوم إلى مكتبه لنشرب القهوة معاً، ليبدأ الحديث عنها، ما كنت أعرف من قبلُ أن لديه مثل هذا الموهبة في معرفة الأشخاص وتقصي الحقائق، أو بالأحرى، نبش المعلومات، أحاديثه

عنها جعلتني أشعر نحوه بالاشمئزاز، وأحاديثه عنها هي التي لفتت انتباهي إليها، ولذلك وجدتني أندفع مرة لسؤاله عنها، وليتني لم أفعل.

مرة واحدة فقط دخلت وداد إلى مكتبي، بعد نقلها إلى لجنة الشراء، دخلت تحمل كتاباً مستعجلاً، قدمته إليَّ وهي تعتذر، وترجو إنجاز الكتاب، فور دخولها ذُهلت الزميلات في المكتب، وأخذن يتبادلن النظرات، وكدن يتوقفن عن الضرب على الآلات الكاتبة، رحبتُ بها، دعوتها إلى فنجان قهوةٍ ريثما يتم طبع الكتاب، اعتذرتْ، لأنَّ مندوب الشركة التي توجِّه الكتابَ إليها قاعد في مكتبها ينتظر، وعدتُها بإرسال الكتاب مع الآذن، شكرتني، ثم قالت قبل أن تخرج مؤكدة: "**أعدك بشرب قهوتك في وقت آخر**"، عبق عطرها الفاغم ظل يفعم المكتب إلى نهاية الدوام، بل لعلي شعرت به لدى دخولي المكتب في صباح اليوم التالي.

تقابلنا بعد ذلك في أبهاء المديرية عدة مرات، كانت تحييني بابتسامة رحبة، وتمضي بمرح، وكلما رأيتها شعرت أني أعرفها منذ زمن بعيد، مرة تلاقينا أمام باب المديرية، كان صباحاً جميلاً، كأننا وصلنا إلى المديرية على موعد مضبوط بالحاسوب، بادرتْ إلى تحيتي بمصافحة ناعمة، وأبتْ إلا أن أدخل قبلها إلى المديرية، وقبل أن تنعطف إلى البهو المفضي إلى مكتبها همست مودِّعة: "**ما أزال على وعدي، سأشرب قهوتك ذات يوم**". كل ذلك قد يكون عاديّاً مع أي زميل أو زميلة في العمل، ولكن أشعر أنه مع وداد مختلف، لِماذا؟ أو كيف؟ لا أعرف؟ ربما كان لأحاديث إسماعيل نفسها دور في ذلك.

وأدخُلُ على سكرتيرة المدير.

– **أهلاً أستاذ رياض، تفضل، السيد المدير بانتظارك.**

وتضع المفتاح في الباب المفضي إلى غرفة المدير، وهي تهمس:

– السيدة وداد عنده، منذ قليل خرج الأستاذ إسماعيل، السيد المدير غاضب، لا أعرف ما الموضوع.

وأردُّ عليها:

– أشكرك، السيدة وداد ستنتقل إلى مكتبي.

تُدهش، لا تجد مجالًا للتعليق، وأنا أدخل مكتب المدير، وهي تغلق ورائي الباب.

- ٢ -

المدير في عمق المكتب، قابعٌ وراء طاولته الكبيرة، نظارته على عينيه، يبدو منهمكاً في كتابة شيءٍ ما.

خمسة مقاعد موزعة في شبه قوس أمام طاولته، وداد في المقعد الأول على الطرف الأيسر من الطاولة.

وداد تنفث الدخان، وسيكارتها بين أناملها، وليس أمامها على المنضدة الصغيرة وسط المقاعد سوى منفضة سكائر، وضعت إلى جوارها حقيبة يدها، بيني وبين عمق المكتب مسافة أجدها شاسعة، أطأ خلالها السجاد الفاخر، وأنا أدخل في جوٍّ دافئ دفئاً زائداً، لا ضرورة له.

أُلْقي تحيَّتي، وأنا أشعر كأني أخوض غمار لُجَّةٍ خانقة، ومثل زنبقة تتفتح، تنهض وداد بقوامها الرشيق.

- مرحباً بالسيدة وداد.

- أهلاً بالأستاذ رياض.

تَمدُّ إلي يدها، فأصافحها، يد ناعمة مثلوجة، باردةٌ في جوِّ الغرفة الدافئ، لا بُدَّ أنها متوترة. المدير يشير بيده إلى المقعد الأول على الطرف الأيمن من طاولته، يدعوني إلى القعود في مقابل وداد. أتردد هنيهة، أجلس في المقعد الأوسط، المقابل لطاولة المدير. وداد على يميني، عبق عطرها الفاغم ينفحني شذاه، أناملها الرشيقة تطفئ بقية السيكارة في المنفضة، فمها مندفع إلى أمامٍ مثل قرنفلة، أنفها الدقيق في أرنبته شَمَمٌ إلى الأعلى، والشعر مرفوع عن الجبين الوضّاء.

المدير ما يزال يكتب. هو من غير شكٍّ قاعدٌ على حشية فوق الكرسي، أو لا بُدَّ أن يكون قد رفع الكرسي الدوار، أو لعله قصَّ أرجل الطاولة التي أمامه، مع ذلك يبدو جذعه، وهو مُكِبٌّ على الطاولة، مثل زورق صغير تائه في لُجَّةٍ من الأوراق والملفات والمصنفات، والأقلام والأختام، والهواتف الثلاثة، بالإضافة إلى جهاز استدعاء السكرتيرة.

تظنُّ نفسك الحُوذِيَّ الذي يقود العربة، وما أنت إلا كمسمارٍ صغير في عجلتها، أيها الغِرُّ الذي ما يزال دون عمر ابني عماد، آهٍ لو تعرف، أو بالأحرى، آهٍ لو تعي، منذ قليل كنت أحدث نفسي وأقول إنه: "**لا يمكنني إلا أن أكرهك**"، بإشارة من يدك تريد أن تقول: "**اقعد هنا**"، يا لغبائك، كم أُشفِقُ عليك.

قبل ثلاثين عاماً، حين دخلتُ أول مرة على المدير القابع في هذا المكان وراء طاولة كانت أقلَّ فخامة من هذه الطاولة، والمحاطِ بأثاث أقلَّ أبَّهةً من هذا الأثاث، أحسست كأنني أدخل مكاناً مقدساً، وشعرت أنني بمقابلتي المدير إنَّما أحظى بسرٍّ من الأسرار، انتابتني رهبة عظيمة، اصطكَّتْ مني الركب، أحسست كأنني قد زلزلت، ولَمَّا خرجت، أحسست كأنني قد نلت منحة عظيمة، كأنني حملت أمانةً كبيرة، فقد وافق المدير على تعييني ضارب آلةٍ كاتبة، ومدَّ إليَّ يده مصافحا. ثم تبيَّن لي أنَّ كل ذلك زيف، تبين لي ذلك بعد عمر من المعاناة. ولكن، حتى الآن، وبعد ذلك العمر، ما يزال بعض الشك يساورني، من حين إلى آخر، لعل ذلك كله هو الحق.

وداد تفتح حقيبة يدها، تخرج منها علبة "**كِنْتْ**"، تستلُّ منها سيكارة، ثم تلتفت إليّ، وهي تَمدُّ يدها بالسيكارة، قائلة:

- **تفضل أستاذ رياض.**
- **شكراً، لا أدخِّن.**
- **هل تسمح لي بالتدخين؟**
- **تفضلي.**

ترشق السيكارة بين شفتيها، ثم تشعلها. لقداحتها، حين تشعلها، صوت مميز. المدير يرفع رأسه، على صوت القداحة، وكأنه قد صحا من نوم عميق، عيناه من وراء نظارته السميكة تبدوان صغيرتين، صغيرتين جداً. يرمق وداد بنظرة، ثم يتطلع إلي، كأنه يراني أول مرة. يتكلم بصوته الأجش:

– أمهلني أستاذ، سأكمل الأسطر القليلة المتبقية في هذه المذكرة.

ويصمت هنيهة، ثم يضيف، وهو يرسم على فمه شبه ابتسامة:

– هي تهمُّك، وتهمُّ وداد، لذلك أمهلني، ريثما أنتهي منها.

– لعلها مذكرة انتقال وداد إلى مكتبي؟

هكذا أعلق، فيرفع نظارته عن عينيه، ويسأل مدهوشاً:

– وكيف عرفت؟

وما يلبث أن يضيف، مستدركاً:

– آه، صديقك الأستاذ إسماعيل، هو الذي أخبرك.

– هو صديقي، من قبل، لاشكَّ في ذلك، ولكنه الآن رئيس الدائرة.

– هل تتنكر لصديقك يا أستاذ رياض؟

– لا، أبداً، هو صديقي من غير شك، ولكن لو كان صديقي فقط، لَما عرف بانتقال وداد إلى مكتبي.

– وما رأيك في هذا الانتقال؟

– وداد لم تنتقل، إنَّما نُقلت.

المدير يعلق بمكر، وهو يلقي القلم من يده، وكأنه يكف عن كتابة المذكرة:

– هذا يعني أنك غير راضٍ عن نقلها إلى مكتبك؟

المكيف البارز من الجدار في زاوية المكتب وراء المدير يئز، يئز، وداد تنفث دخان سيكارتها بصمت، الستائر على النوافذ مسدلة، الدفء الزائد يخنق الأرجاء، نحن في أواخر نيسان، والشمس في الخارج من غير شك ساطعة، أستشف النور المغيَّب وراء الستائر، أنظر إلى وداد، أرى جبينها الوضّاء، وأنفها الأشم، وأسحب نفساً عميقاً، ثم أتكلم:

– لا، ليس كذلك.

وأصمتُ، ثم أضيف:

– كان من المتوقع أن تباشر وداد عملها في مكتبي فور انتقالها إلى مديريتنا، لأنها في الأساس معيَّنة بوظيفة ضاربة آله كاتبة.

– هذا صحيح، ولكن يحقُّ للمدير دائماً أن يكلف أي موظف بأي عمل لصالح المديرية، خلال السنة الأولى من تعيينه، لأنها تعتبر فترة اختبار.

هكذا يتكلم المدير، وهو يحدجني بنظراته، فأجدني أتكلم:

– ولكن مضى على تعيين السيدة وداد سنةٌ ونصف السنة في مديرية التصدير، قبل انتقالها إلى مديريتنا.

المدير يتكلم، مصطنعاً الابتسام:

– أراك تعرف كل شيء عن وداد؟

– أرجو من السيد المدير ألا ينسى أنَّ كتاب انتقال السيدة وداد، وكلَّ مذكرات انتقالها من مكتب إلى مكتب داخل المديرية، قد مرَّت بي، وأنني صحَّحتها جميعاً طباعة، بعد تدقيقي لها قانونياً، وكلها تتضمن تاريخ تعيينها وسيرة حياتها الوظيفية.

– ولكن لا أظن أنك عرفت ذلك من كتاب انتقالها أو من المذكرات، فقط، لا شكَّ في أنَّ رئيس الدائرة، صديقك، الأستاذ إسماعيل، قد حدَّثك عن كل شيء.

ويصطنع الابتسام ثانية، وهو يسأل:

– هل تنكر ذلك؟

وأرد:

– لا، لا أنكر، ولا أنفي.

ويضع نظارته على عينيه، ويعود إلى الانهماك في الكتابة، يُكِبُّ على الطاولة، يميل عليها بجذعه، يكتب، يشطب، يكتب، كأنما يصوغ أخطر قرار في التاريخ. وداد تطفئ بقية سيكارتها، تلتفت إلي، تخفق

رموشها الهدباء، وتبتسم، كالزنبق البحري الأبيض، يتفتح مشبعاً بالندى.

"**أنت لا تعرف**". هكذا كان إسماعيل يبدأ دائماً حديثه، ثم ينطلق في الكلام عليها، "**أنت لا تراها، كلَّ يوم تأتي إلى المديرية، وترجع منها، في سيارة أجرة، لا تنتظر الحافلة، ولا تعاني من الزحام**"، أو يقول: "**أنت لا تعرف ما يدور في هذه المديرية، هل سمعت؟ سهرت ليلة رأس السنة مع خالد في نادي الاتحاد**"، أو يقهقه عالياً، ثم يقول: "**تعال، اسمع، وداد تقول إنها طالبة في السنة الرابعة بكلية الحقوق، شيء مضحك حقاً، أنا ما رأيت في حياتي طالبة مثلها**"، أو يقول، وهو يصطنع الجد: "**أريد فقط أن أعرف....**".

المدير يلقي بالقلم، يرجع بظهره إلى مسند المقعد، كمن يستريح من عبء كبير، يرفع النظارة عن عينيه، يدعكهما طويلاً، ثم يتكلم:

– **هذه هي المرة الثالثة التي أعيد فيها صياغة مذكرة نقلكِ، أمورِكِ دائماً معقدة، يا وداد، لا أعرف لِماذا؟ صاغ المذكرة أول مرة رئيس الدائرة، الأستاذ إسماعيل، ولكن لم تعجبني الصياغة، ثلاث مرات أعدت صياغتها بنفسي، كأنه لا عملَ عندي، سوى صياغة المذكرات، لنقل هذا الموظف أو ذاك.**

الصمت الخانق يطغى. وداد تستل سيكارة، تشعلها، صوت قداحتها المتميز وحده يقطع الصمت. المدير يتكلم:

– **والآن، يا وداد، هذه هي المرة الخامسة التي يتم فيها نقلك داخل المديرية، الآن مكتب الأستاذ رياض، ولا مكتب بعده.**

وداد تنفث دخان سيكارتها، ثم ترد بهدوء:

– **لو باشرت عملي في مكتب الأستاذ رياض، أوَّلَ انتقالي إلى المديرية، لَما حصل ما حصل.**

– لا ترجعي بالموضوع إلى بدايته، تحدثنا فيه من قبل كثيراً، وعلى كلٍّ حال، هذه مذكرة انتقالك، أعطيها إلى الأستاذ رياض، ليطبعها.

هكذا يتكلم، وهو يمد يده بالمذكرة. وداد تنهض، تتناول منه المذكرة، وتتقدم نحوي، تطلُّ عليَّ بوجه وضّاء، ببسمة مشرقة تضيء فمها القرنفلي، تناولني المذكرة، ثم ترجع إلى مقعدها رشيقة، مثل فراشة.

المدير يتكلم:

– أستاذ رياض، وداد ستباشر عملها في مكتبك ضاربة آله كاتبة، صباحَ غدٍ الأحد، وها أنذا في حضورها، أطلب منك إعداد تقرير يومي عن عملها، ولا أريد التهاون معها على الإطلاق.

وأرد:

– عفوا، العمل هو العمل، هي أو غيرها من سائر الموظفات في المكتب، إما أن تكون ضاربة آلة كاتبة بحقّ، وإما ألا تكون. وبصراحة، لا يمكنني رفع تقرير يومي، نجاحها هي المسؤولة عنه، والعمل كما قلتُ هو العمل.

وداد تطفئ سيكارتها، وهي ترد بحدة:

– نجاحي، حقيقة، كما قال الأستاذ رياض، أنا المسؤولة عنه، وسأكون ناجحة من غير شك.

المدير يغمغم:

– هذا هو المطلوب.

تمر هنيهة صمت، أدرك أنَّ الزيارة انتهت. أخرجُ ووداد من مكتب المدير، تتلقانا السكرتيرة بتحية رقيقة، تشدُّ على يد وداد، تهنئها قائلة:

– في النهاية لا يصح إلا الصحيح، منذ البدء كان يجب مباشرتُك العملَ في مكتب الأستاذ رياض.

وداد ترد:

– **شكراً، شكراً لتعاطفك معي.**

ونحن نهبط على الدرج، نلتقي الأستاذ إسماعيل، صوته الفاقع يرن:

– **أهلا، أهلاً بالعروسين، هكذا هكذا، وإلا فلا، رياض ووداد، من أعماق قلبي أهنئكما معاً، لا ينقصكما إلا باقة زهر.**

أرد عليه قائلا:

– **أنت لا تكفُّ عن دعاباتك، يا إسماعيل.**

إسماعيل يرد، وهو يصعد الدرج متجهاً إلى بهو المدير:

– **على كل حال اعذراني، نسيت علبة تبغي عند السيد المدير، سأمر بكما غداً في المكتب، لأشرب القهوة، وأقدم لكما التهاني.**

علبة التبغ في جيبه، يَشِفُّ عنها قميصه.

غريب؟ ما معنى هذا التعليق السخيف؟ ولماذا يرجع إلى مكتب المدير؟

- ٣ -

في الصباح، وأنا متوجه إلى المديرية، أفكر: كيف سأعامل وداد؟ العمل هو العمل، لا شكَّ في ذلك، ولكن، كيف سيكون التعامل الشخصي؟ تعاملي معها؟ وتعاملها معي؟ وتعاملها هي مع زميلاتها؟ وتعامل هؤلاء معها؟ لا أنكر، طوال الليل كنت أفكر، وداد ليست بالموظفة العادية. رأيت أحلاماً كثيرة، بعضها مزعج، وبعضها الآخر مريح، لست أذكر جيداً ماذا رأيت؟ ثَمَّة حلم يراودني دائما، أظن أنني رأيته الليلة الفائتة.

شوارع أنيقة نظيفة، هي من أحدث الشوارع في العالم، مشجرة كثيفة الأشجار، بعضها يفضي إلى بعض، وأبنيه حضارية فخمة، هي أبنية عريقة في فخامتها، ولكنها حديثة، من طراز خاص جديد، قصور أو معابد أو أبراج، كلها من حجر رخامي، كأنني أعرفها منذ زمن، كأنني رأيتها في الحلم من قبل، وأنا أراها في الحلم أذكر أنني رأيتها في حلم سابق، ولكنَّها مع ذلك، جديدة جديدة، وأنا أطوف في الشوارع والحارات والأزقة المتغلغلة خلال تلك الأبنية، أتجوّل بينها، أستمتع بظلالها، أشعر بالبهجة لدخولي عمقاً خلالها، تارة أمشي، وتارة أقود سيارة، السيارة تنقاد لي من غير تبديل السرعة، السيارة تنساب، تَنْزلق، تنطلق في ليونة، كأنها السيارة الكهربائية في مدينة الألعاب، أناقة وفخامة وحداثة، كلُّ شيء جديد جديد.

ولكن ما علاقة ذلك كله بوداد، ما صلته بانتقالها إلى مكتبي؟

لا أنكر أيضاً أنني فكّرت كثيراً، هل أحلق ذقني كعادتي كلَّ صباح؟ هل أنتقي أفضل معطف عندي؟ أم هل أترك ذقني غير حليقة؟ وأرتدي معطفي الذي غالباً ما ارتديته، زوجتي نفسها لاحظت ترددي، طلبتُ منها أن تناولني معطفي الكحلي، الذي أحتفظ به عادةً للمناسبات، ثم لَم ألبث أن تركته، وارتديت معطفي المألوف، وخرجت، ولم أحلق ذقني. كنت أريد إظهار عدم مبالاتي بها، أو بالأحرى، عدم

عنايتي الخاصة بنفسي لأجلها، حتى لا تسخر مني، وأنا العجوز، وإن كنت لا أنكر حقيقة أنها أشاعت في نفسي البهجة، ومنحتني الثقة، وحرّكت لديَّ روح الشباب.

ولكنَّ المشكلة تكمن في التدخين، هي تدخِّن كثيراً، وأنا لا أدخِّن، أو بالأحرى، أقلعتُ عن التدخين منذ أكثر من عشر سنوات، وإن كنت لا أتردد أحياناً في تدخين سيكارة، وأكثر ما أخشاه، هو العودة إلى التدخين. لحسن الحظ ليس في زميلات المكتب من تدخن، وداد وحدها من ستدخن، على كلٍّ حال، لا بُدَّ من توصيتها بالإقلال ما أمكن.

ولكن لا بُدَّ من الإقرار، أمس، وهي تدخن في مكتب المدير، كنت مشدوداً إلى حركة أناملها وهي ترفع السيكارة إلى فمها، ترشقها بين شفتيها، ثم تنفث الدخان، كلُّ ذلك بطريقة لا أعرف كيف هي؟ وحين أقبلت عليَّ، تُقدِّمُ إليَّ مذكرة انتقالها، نفحتني نكهة الـ"كِنْت"، وعبق عطرها الفاغم، حتى قداحتها، وهي تشعلها، كأنها ترمي بحصى في صفحة بحيرة، فيتحرك كلُّ ساكن.

كذلك أذهلتني أمس، حين لَمْ تبالِ بكلام إسماعيل، عندما قال لنا: "**أهلاً بالعروسين، لا ينقصكما إلا باقة زهر**"، أنا حِرْتُ في الأمر، ماذا أقول لها؟ كيف أعلِّل تعليق إسماعيل؟ كيف أشرحه؟ ولكنها، وهي تسير بقربي في البهو، تلتفت إلي، لتقول بلطف غير متكلف: "**أحيِّي موقفك، يا أستاذ رياض، من المدير، وأقدِّر لك تعاطفك معي**"، تقول ذلك وقد تناست إسماعيل، بل كأنه لم يَمرَّ بنا، وكأنها لَمْ تسمع شيئاً من تعليقه، وأرد عليها: "**في الأحوال كلها، أنا لم أفعل شيئاً سوى أنني قلت ما أعتقد به**".

كذلك لا أنسى أمس، وقد مضينا معاً في البهو، بخطوات هادئة، كأننا نودُّ لو نسير معاً أكثر فأكثر، وأنا أشعر بها، وهي تسير بقربي، ناعمة صغيرة، تنفحني شذى عطرها، كأنها بنفسجة، وأمام باب مكتبي، تقف، قائلة: "**أرجو قبولي في مكتبك يا أستاذ رياض**"، وأرد: "**يسرني**

أن نعمل معاً في مكتب واحد"، فتضيف: "**شكراً، هذا كرم منك، ولكن أنا أدخِّن، وأشرب القهوة**". أقاطعها قائلاً: "**وتضعين نوعاً خاصاً من العطر**"، فتضحك، وهي تتابع كلامها سائلة: "**فهل تقبل بي على هذه الحال؟**"، وأجيبها: "**أهلاً بك في الأحوال كلها، وإن كنت أتمنى الإقلال من التدخين، أو الإقلاع عنه**"، ثم أحدِّثها مؤكِّداً لها أنني تمكّنت من الإقلاع عن التدخين منذ عشر سنوات، فترد بمرح: "**أعدك بالإقلاع عنه**"، فأعلِّق: "**ولكن أرجو ألا تتأخري كثيراً، مثلما تأخرت**"، وتهمس سائلة: "**وعطري؟ هل أقلع أيضاً عنه؟**"، وأرد: "**لا، عطرك مميَّز، ضعي منه المزيد**"، وتمد إليَّ يدها مصافحة، وهي تهمس: "**سأذهب الآن لوداع الزميلات في المكتب القديم، لقاؤنا غداً في مكتبك**".

من غير أن أشعر، وجدت نفسي أمسِ أعاملها بمرح، لا أراعي فروق السن بيني وبينها، ولا كوني رئيس عملها المباشر، ليس من طبعي ذلك، ولا من عادتي، ولكن هكذا وجدتُني أمسِ منطلقاً معها بعفوية. لذلك أمضيت الليلة الفائتة وأنا أفكر، هل أعاملها بحزم؟ هل أستخدم الجدّ؟ العمل هو العمل، لا شكَّ في ذلك، ولا يمكن التهاون في شيء منه، ولكن مرة أخرى، كيف سيكون التعامل الشخصي؟ لقد فكرت في الطاولة التي ستشغلها، هناك صفان من الطاولات، أربع على طول الجدار الأيسر، وثلاث على طول الجدار الأيمن، والطاولات كلها أمامي، بعضها وراء بعض، في رتلين متوازيين. الطاولات الأربع تشغلها منى وسناء ودلال وهيام، الطاولات الثلاث لا يشغلها أحد، الطاولة الأولى منها المقابلة لطاولتي يشغلها صالح، يمكن أن تشغلها وداد مؤقتاً إلى أن يخرج صالح من المستشفى. ولكن، ترى، هل من عادتها التأخُّر؟ هل تقع في أخطاء كثيرة وهي تضرب على الآلة الكاتبة؟ هل هي متمرنة جيدّا؟

وأفتح باب المكتب وأدخل، وإذا وداد. وجه مشرق، وعينان تمنحان البهجة، وبسمة هي الحياة، انطلاقة بشر وسعادة ومرح، من غير تعقيد ولا تكلُّف ولا جهد. شذى عطرها الفاغم يغمرني.

– صباح الخير.

– أهلاً، صباح النور.

يدانا تلتقيان في مصافحة ناعمة.

– القُبَّرات والفراشات تستيقظ دائماً مبكرة.

– أنا أعشق النور والهواء والفجر الجميل، ولكن بصراحة، لست قُبَّرةً ولا فراشة.

– يرضيك أن أقول نحلة؟

– ربما ملكة النحل أجمل.

– ولكنَّ ملكة النحل لا تعمل.

وترد باستسلام ناعم:

– إذن، لا بأس، نحلة.

وأضيف:

– تصنع العسل.

– وتلسع.

أعلق:

– لا أريد لها أن تلسع، ففي لسعها موتها، حرام موتها، وهي ما تزال في بداية الطريق.

وتضحك، ثم تسأل، وهي تتفحص أرجاء المكتب بعينيها:

– أين مكاني؟ أستاذ رياض.

– مكانك في القلب.

لا أعرف كيف ينطلق مني الكلام، يفلت، يطير، يحلِّق بأجنحة ملونة، بسمة عينيها تطلق كل الكلمات العذبة. أحس بالدم ينفر إلى

أذني الاثنتين، أشعر بهما وقد أصبحتا ساخنتين، أتصورهما محمرَّتين. وداد تردُّ بعفوية ومرح، ومن غير ارتباك:

– أعرف ذلك، ولكن أودُّ السؤال عن مكاني في هذا المكتب؟ ووراء أي طاولة سوف أعمل؟

أزداد ارتياحاً إليها، أشعر بالاطمئنان. أشير إلى الطاولة الأولى، في الرتل الأيمن، المقابلة لطاولتي، فتتجه إليها على الفور، تقعد ورائها، ترفع الغطاء عن الآلة الكاتبة، تتكلم:

– لم يخب ظني، منذ دخولي المكتب توقّعت أن تكون هذه طاولتي.

هممت أن أقول لها إنَّ الطاولة لصالح، وإنَّ قعودها ورائها مؤقت، ولكني آثرت الصمت.

وتتوافد الزميلات، منى وهيام وسناء ودلال، يأتين متتابعات، واحدة إثر الأخرى، عيون متعبة لَم تشبع من النوم، ووجوه علتها الأصبغة، لتخفي ما وراءها من سهر وقهر وتعب، كل منهن تلقي تحيتها بفتور، ثم تتخذ موضعها وراء طاولتها. الزميلات يصطنعن النظر في الكتب المتبقية من يوم أمس، وهن يختلسن النظر إلى وداد.

وجه وداد نضر، قليل من الأحمر على شفاه الفم القرنفلي، والعينان تبسمان، تغزلان ألقاً وبهجة.

بعد عودتي من مكتب المدير، يوم أمس، عند نهاية الدوام، أخبرت الزميلات بانتقال وداد، فعلقت منى متسائلة: "**ولِماذا لم تباشر عملها في هذا المكتب منذ انتقالها إلى مديريتنا؟**". وردَّت دلال ساخرة: "**لكل شيء سبب**"، وأضافت منى متسائلة أيضاً : "**وانتقالها الآن إلى هذا المكتب، هل له سبب؟**"، ردت هيام ضاحكة: "**له ألف سبب**"، وفي أثناء ذلك كانت سناء تتظاهر بعدم الاهتمام.

كان إسماعيل قد أكد لي أنَّ كلَّ ما يقال عن وداد إنما يبدأ من مكتبي، ينطلق من الزميلات، لم أصدقه، قلت له: "**هنَّ لا يتكلمن عنها**

فـي شـيء"، أجاب: "**هـنَّ لا يـتكلمن أمامـك**"، صـمتُّ، ومـا أزال غيـر مصدق لِما قال. كيف ستكون المواجهة الآن بين وداد وزميلاتها؟ هل أتدخّل؟ ماذا أقول؟ لا أريد أي خصام أو خلاف؟

ويـدخل العـم محمـود محييـاً، وهـو يحمـل صـينية فيهـا فنـاجين القهوة.

– **أهلاً بك يا عم محمود، جئت في وقتك.**

وأنظر إلى ساعة يدي، ثم ألتفت إلى وداد، وأضيف:

– **من عادتنا يا وداد، شرب القهوة في ربع الساعة الأولـى من الدوام، قبل بدء العمل.**

– **وفي ربع الساعة الأخيرة؟ ألا يجوز شرب القهوة أيضاً؟**

هكذا تسأل بمرح، فأغتنم الفرصة، فأقول:

– **آه، اعذروني، نسيت أن أقدم بعضكم إلـى بعض، وإن كنـت على يقينٍ من أنكم علـى معرفـة، ولكـن من أجل معرفـةٍ جديـدةٍ، أوثـق وأعمق.**

ثـم أقـدِّم وداد، وأقـدم إليهـا العـم محمـود والـزميلات، وأؤكـد أنّنـا جميعاً أسرة واحدة.

وداد تفضُّ علبة الـ"كِنْت"، تدعو الزميلات إلى التدخين، فيشكرنها معتذرات، تتقدَّم منـي، تمدُّ إلـيَّ يدها بالعلبـة، سيكارتان بارزتـان، نكهـة الـ"كِنْت" التـي أعرفهـا جيـداً تغرينـي، أناملهـا الناعمـة تـدعوني، أودُّ لـو أخذت سيكارة، لو أشعلتها، لو خبأتُها، أحتفظ بها للذكرى، ولكن...

– **شكراً.**

وترتـد يـدها، تستلُّ سيكارة، ترشـقها بـين شـفتيها، تشـعل قداحتهـا، صوتها المميز يثيرني، تنفث الدخان، أرقبها بنهم. وتتكلم:

– **مـا رأيكـم، لـو أعدنا توزيـع الطـاولات؟ لِمـاذا هـي علـى هذا الشكل؟ وكأننـا تلاميذ في قاعة الصف؟ لِماذا لا تكون متقابلة؟ لنشـعر كأننا معاً أسرة واحدة حقيقة، كما قال الأستاذ رياض؟**

وأعلق:

– لا بأس.

وتضيف:

– وما رأيكم في إحضار بعض أزهار الزينة؟ نحن نمضي هنا من الوقت أكثر مِما نمضي في بيوتنا.

وتتكلم دلال معلِّقة بشيء من الاستنكار:

– ولكنَّ أزهار الزينة غالية، وتكلف كثيراً، وتحتاج إلى رعاية؟

وترد وداد:

– ليست مشكلة، في دارنا بعض الأصص، سأحضرها غداً إلى المكتب.

الزميلات يفرغن من شرب القهوة، و يبدأن في طباعة الكتب المتبقية من يوم أمس. وداد تنهي قهوتها، وتطفئ سيكارتها، الزميلات يختلسن النظر إليها. نظرات تنمُّ على عداء أو نفور أو ريبة، لا أعرف؟ وداد تتكلم:

– أنتظر تكليفي بالعمل، أول كتاب يصل سيكون لي، إن سمحت، أستاذ رياض، لا أريد البقاء من غير عمل.

منى تعلق:

– اطمئني، الشغل كثير، لن ترتاحي إلا قليلاً.

وداد ترد:

– يسرني ذلك.

وتبدأ الكتب بالتوارد، يحملها العم محمود، أنظر فيها، أدققها، أوقِّع عليها، وأوجِّهها للزميلات. وداد تبدأ العمل، تضرب بمهارة، بأصابعها العشرة، الزميلات يرشقنها بين الحين والآخر بنظرات خاطفة، وداد ترمقهنَّ أيضا، بنظرات سريعة، وتتظاهر بأنها لَمْ تنتبه إلى نظراتهن. ترى ماذا ستُشيع الزميلات عنها غداً من أقاويل؟ قبيل نهاية الدوام، يرنُّ جرس الهاتف، أرفع السماعة، وإذا إسماعيل.

- أستاذ رياض.

- أهلاً.

- كيف الموظفة الجديدة؟

أختلس النظر إلى وداد، وهي مستغرقة في الضرب على الآلة الكاتبة، أحس بصوت آلتها مميزاً من صوت باقي الآلات، هو الأسرع والأعلى. أشعر أيضا أنها تصيخ السمع، على الرغم من استغراقها في العمل.

- سؤالك اهتمام شخصي؟ أم تكليف؟

- لا هذا ولا ذاك، هو دعابة، لا تأخذ الأمور دائماً بجد.

يضحك، يقهقه، حتى يخيل إليَّ أن وداد قد سمعت قهقهته من خلال سماعة الهاتف. ويقطع ضحكته، ثم يقول:

- لك عندي بشرى.

- ما هي؟

- أجّلت شربي القهوة عندك إلى يوم غد.

- أهلاً بك في كل وقت.

- ولكن سأراك بعد الانصراف، خارج المديرية، أنا مدعوٌّ اليوم إلى الغداء عند صديق، بيته في ساحة الملح بقرب بيتك، سنذهب معاً في الحافلة، وسيكون لي معك حديث خاص.

وأهمس:

- خاص بوداد؟

ويقهقه عالياً، وهو يقول:

- بالتأكيد.

وأضع السماعة، وأنا اختلس النظر إلى وداد. أشعر بالقهر، أحسُّ كأنما أدركَتْ أنها هي المقصودة بالاتصال الهاتفي، ولكن ماذا يريد إسماعيل أن يقول؟

– ٤ –

أذهل، في صباح اليوم التالي، وأنا أدخل المكتب. أهي جنِّيةٌ أم ساحرة؟ كيف فعلت هذا؟ ومتى؟ بالأمس فقط كنا نتكلم على تغيير مواضع الطاولات، وإذا كلُّ شيءٍ في صباح اليوم قد تغيَّر. طاولتي في عمق المكتب، كما هي، في موضعها، ولكن أصبح وراءها غابة عميقة ممتدة ممتدة، هي لوحة جدارية كبيرة، لصقتها على طول الجدار، مَنْ يراها يحسب نفسه في غابة، وعلى طاولتي وضعت أصيصاً ترتفع فيه شجيرة لبلاب، تلتف حول جذع أخضر، في حلقات، ودوائر صاعدة، أوراقها زاهية الخضرة. أمام الجدار المواجه للداخل إلى المكتب وزّعت أربع طاولات، ووضعت مقابلها، وأمام الجدار الآخر، ثلاث طاولات، وعلى كل طاولة وضعت إلى جوار الآلة الكاتبة أصيصاً صغيراً فيه زهر "الهوى"، وقد تدلت أغصانه الرقيقة الناعمة، وهي من اللطف تكاد تدعوك إلى احتضانها إشفاقاً عليها من الانكسار.

وأنادي العم محمود، أساله:

– **من فعل هذا؟**

– **وداد.**

– **لا يعقل، كيف؟**

– **اتّفقت معي يوم أمس على الحضور إلى المديرية في السابعة من صباح هذا اليوم، ووجدتها قد سبقتني، ومعها أخوها، وخلال نصف ساعة غيّرنا كل شيء، كما ترى.**

ويصمت، ثم يضيف:

– **اسمح لي بثانية واحدة، فقط.**

ويغيب ثم يرجع، وهو يحمل صينية فضية فاخرة، فيها فناجين قهوة من نوع راق، ويهمس بفرح:

– **أحضرت للمكتب هذا كله، ونصف كيلو من البن الممتاز.**

– **وأين هي؟**

- لا اعرف، رجعت مع أخيها.

ويخرج العم محمود.

الأمر غير معقول؟ ما هذا الجنون؟ في يوم واحد تفعل هذا كله؟ ماذا عساها تفعل في الأيام القادمة؟ وزميلاتها كيف سيقبلن هذا كله؟ وما الأقاويل التي سينشرنها؟ وإسماعيل ما ينفكُّ يتكلم عليها. " **هي لا تجيد الطباعة، تطبع بإصبع واحدة** "، هكذا بدأ حديثه عنها يوم أمس، ونحن في الحافلة، " **المدير لم ينقلها إلى مكتبك إلا ليمنحها الفرصة الخيرة، وبعد ذلك سيرفع كتاباً إلى المدير العامّ للاستغناء عنها**"، الحافلة مكتظة، وهي تسير ببطء، وقد حُشر فيها الركاب حشراً، بين واقفين وقاعدين، وهو واقفٌ بجواري يميل عليّ، ويهمس متحدثاً، يظن أنه يهمس، ولكنَّ صوته يجلجل، ظنني أنّ كلَّ من في الحافلة قد سمع حديثه، وددت لو غادرت الحافلة قبل بلوغها بيتي، وددت لو أسرعت قليلاً، وهو يكرر الكلام ويعيده. "**هذا هو الحديث الخاص؟**". هكذا سألته، فردّ: " **لا، هناك أشياء كثيرة جداً**"، وقبل مغادرتي الحافلة قال لي: " **سأزورك غداً في المكتب لشرب القهوة**"، رددت عليه سائلاً: " **لتراقبها؟**"، ضحك وقال: " **ربَّما**"، فقلت له متحدياً: " **أنصح لك أن تكون الزيارة مباغتة، لتراها على حقيقتها**"، ثم تركته، نزلت من الحافلة، وأنا أزداد كرهاً له ولمديره. ليته يأتي اليوم، أو غداً، أو في كلِّ ساعة، ليرى بعينه.

وتبدأ الزميلات بالتوافد، واحدة إثر أخرى، يدهشن بما يرين، يتهامسن، دلال تعلِّق:

- هذا يكلف كثيراً.

منى تضيف:

- وكيف سندفع لها؟

وأتدخل، فأقول:

– لا أظن أنها ستقبل أخذ أيِّ شيء، وأرجو عدم الإشارة إلى هذا الموضوع، لنتركها تفعل ما يحلو لها.

سناء تخرج عن صمتها، فتتكلم:

– تُرى هل يوافق المدير؟

وأسأل:

– على أيِّ شيء؟

– على هذا التغيير.

أشعر بالانزعاج، فأردُّ بحدَّة:

– كلُّ شيء: المدير، المدير، المدير؟ ولِماذا يوافق أو لا يوافق؟ أكلَّفْنا المديريةَ شيئاً؟ أم عطَّلْنا فيها العمل؟

ويخيِّم الصمت، انظر إلى ساعة يدي، وإذا هي الثامنة وثلاث عشرة دقيقة، بعد دقيقتين يرفع دفتر التوقيع، لا أُريد لها أن تتأخر في ثاني يوم من أيام دوامها في مكتبي.

وتدخل وداد، تلقي تحية الصباح، يدخل في إثرها العم محمود، وهو يحمل شيئاً ملفوفاً بورق فاخر، يضعه على طاولتها. وداد تتكلم:

– اسمحوا لي أن نحتفل بانتقالي إلى مكتبكم، الكل يعرف أنَّني عانيت كثيراً قبل هذا الانتقال.

وتشير إلى العمّ محمود، فيفضُّ الورق عن قالب كاتو فخم، ثم يخرج ليعود بفناجين الشاي. وداد تدعوني لتوزيع الكاتو. أشعر بالبهجة الحقيقية، جبالٌ وسُحُبٌ ثقال تنجاب عن صدري، أحلِّق إلى الأعلى فالأعلى، والشمس تبث في كل الأرجاء نورها الوضّاء، وأنا أعوم في بحيرة العطر والنور.

وداد تمزح، تضحك، الزميلات يخرجن شيئاً فشيئاً عن الإطار الذي رسمته كلُّ واحدة منهن لنفسها، هذا ما أشعر به، نظراتهن توحي في البدء بالشك، بالريبة، بالقلق، ثم أخذت توحي بالانطلاق والبهجة

والسرور. لعلَّ العقد كلَّها تزول، ليس عقدة وداد فحسب، بل عقد الجميع.

منى مخطوبة منذ سنتين إلى قريب لها، هي موظفة وهو موظف، يكدحان، يدّخران، يصبران، كلَّ يوم يؤجلان موعد الزفاف، عسى أن يتمَّ فرش الدار، ولكن من غير جدوى.

هيام في خصامٍ دائم مع زوجها، مِثْلاف، يضمُّ راتبها إلى راتبه، ولا يكفيهما في شيء، لم يرزقا بولد، على الرغم من مضيِّ خمس سنوات على زواجهما، لا تعرف أين يذهب زوجها بالنقود، لديها شكٌّ كبير في إخلاصه لها، إما أن يكون متزوجاً بالسر، وإما أن تكون له عشيقة، وإلا فأين تذهب النقود؟

سناء لا تفكر في الزواج، ولا تنتظر خطيباً، وتكره كلَّ من يتودَّد إليها، أبوها متوفّى، وإخوتها صغار، هي تعيلهم، أمها مريضة دائماً، مرةً واحدةً تقدم إلى خطبتها شابّ، ثم اكتشفت خداعه، قرّرت أن تنذر حياتها لتربية إخوتها.

دلال أمٌّ لأربعة أولاد، متعبة في العمل، متعبة في البيت، لا تستطيع المساحيق إخفاء الهالات القاتمة المحدقة بعينيها، وجهها متجهِّم دائماً، هي الأكبر سناً في تلك الجوقة، والأكثر همّاً وغمّاً.

لم أمزح معهن مرة، ولم أُلْقَ منهن وجهاً باشّاً في أي يوم، لا في أول الأسبوع ولا في آخره، ولا قبل الإجازة ولا بعدها، ولم تحدِّثني يوما إحداهن بشيء، لا يعرفن سوى التذمُّر من العمل والشكوى، أو طلب إجازات ساعية. كلُّ المعلومات عنهن يزودني بها إسماعيل، وكل المعلومات عن وداد زودني بها أيضاً إسماعيل، ولكنَّ وداد تختلف حتى في طريقة تناولها قطعة الكاتو، في ارتشافها القهوة، في نفثها دخان السيكارة، هل تخفي وراء ذلك المرح كلِّه عقدةً ما؟

وتتوافد الكتب، وتبدأ الآلات في الطباعة.

أنظر إلى وداد خلسة، وهي تضرب على الآلة الكاتبة، أناملها العشر تتقافز في ضربات رشيقة، أحسّ لوقع آلتها نغماً خاصّاً، كأنها تعزف على آلة موسيقية لا تتوقف، لا تستعمل المصحِّح الأبيض، لا تعيد النظر فيما تطبع، العم محمود يحمل إليَّ ما تطبعه، أقرؤه بدقة، أعيد فيه النظر، أبحث عن خطأ، ولكن لا خطأ. ولكن لا بُدَّ بين ساعةٍ وأخرى من فنجان قهوة، ولا بُدَّ من سيكارة مع كلِّ فنجان، لا تتأخر كثيراً في ارتشاف القهوة وتدخين السيكارة، وسرعان ما ترجع إلى العمل أسرع فأسرع، ومع كلِّ فنجانٍ جديدٍ تدعونا جميعاً إلى القهوة. دلال تعتذر، تؤكد أنه يكفيها فنجان الصباح، سناء تستجيب تارةً وتارةً تعتذر، هيام تأخذ فنجانين في اليوم، منى تجاريها، فتشرب كلما شربت. عادات جديدة، لم نألفها من قبل، كنا نشرب القهوة مرّتين، ثلاثاً، وأحياناً أربع مرات، ولكن الخلاف ليس في العدد، ثمة ما هو جديد. يحلو لي أن أراقب وداد، وهي ترشف القهوة وتنفث الدخان بطريقتها الخاصة، وتضبطني وأنا أراقبها، فأشعر بالارتباك، ولكنها تبتسم، وتهمس بفمها القرنفلي:

– سترجع إلى التدخين ذات يوم.

وأرد مشيراً بالنفي، فتضحك.

العمل هو العمل، حقيقة، ولكنّه أصبح ممزوجاً بما هو ممتع، القهوة والـ"كِنْت" والعطر، أنغام ثلاثة في لحن واحد، اسمه وداد.

قبيل نهاية الدوام يرنُّ جرس الهاتف، أتردَّد في رفع السماعة، هو إسماعيل من غير شك.

– أهلاً أستاذ إسماعيل.

– أهلا، كنت قد وعدتك بشرب فنجان القهوة عندك هذا اليوم، ولكن أجّلته إلى المساء.

– أهلاً بك في كلِّ وقت، هل تودُّ زيارتي مساء؟

– لا، سنشرب القهوة معاً مساءً في المكتب.

ويصمت هنيهة، ثم يضيف:

– في الواقع، يؤسفني إخبارك أن السيد المدير طلب مني إبلاغك تكليفه لكم – طبعاً أنت والزميلات – بالدوام المسائي بدءاً من يوم غدٍ الثلاثاء.

وأقاطعه:

– لطباعة التقرير السنوي؟

أحسُّ بصوت الآلات الكاتبة وقد انقطع، أنظر إلى الزميلات، وإذا هنَّ مصغيات للحديث، ناظرات إليَّ بعيونٍ مذعورة متعبة.

ويسألني إسماعيل:

– وكيف عرفت؟

– هذا متوقَّع، فنحن في أواخر شهر نيسان، وسنتنا المالية موشكة على الانتهاء، ولا بُدَّ من رفع التقرير السنوي في مثل هذا الوقت، من كل عام.

– الأمر واضح إذاً؟

– ولكنَّ الدوام المسائيَّ صعبٌ بالنسبة للزميلات، ولعلك تذكر أننا حللنا المشكلة العام الماضي باستمرارنا في الدوام إلى الخامسة والنصف؟

– لا أعرف.... ما على الرسول إلا البلاغ.

وأضع سماعة الهاتف، فتنطلق أصوات الزميلات.

– لن نداوم، وليشربوا البحر.

– نخسر التعويض الإضافي، وقد يُحسم من راتبنا؟

– وليحسموا الراتب كله، وهل نستفيد منه بشيء؟

– أنت يا دلال لا يهمك الأمر، ولكن...

– ومن قال لك يا سناء إنَّ الأمر لا يهمني، وهل أنا زوجة مليونير؟

– فلنداوم حتى الخامسة والنصف.

– ولكن المدير، قد لا يوافق؟

– لنقابل المدير كلنا يا سناء، ولنحاول إقناعه.

– نحن لا نقابل المدير، ولا نريد مقابلته، قابليه أنت وحدك نيابةً عنا إذا شئت، يا وداد.

– أنا على استعداد.

وأتدخل:

– أرجو ألا نختلف، منذ قليل كنا سعداء بتناول الكاتو، ولا شيء يكدِّر جوَّنا، كأننا أسرة واحدة، ويحسن بنا بعد ذلك مواجهة أي مشكلة بالتفاهم و الاتفاق، لا بالاختلاف، أعدكم بمقابلة المدير يوم غد، ومحاولة إقناعه بالدوام حتى الخامسة والنصف، بدلاً من الدوام الإضافي مساء.

سناء تسأل:

– وإذا لم يوافق؟

أتكلم:

– سأبذل قصارى جهدي، ولكن في النهاية يبقى العمل هو العمل، والتقرير السنوي لا بُدَّ من طباعته.

وتمر هنيهة صمت، وإذا سناء تتكلم ثانية:

– هذا يعني أنَّ المدير نقل السيدة وداد أمس إلى هذا المكتب ليكلفنا اليوم بطباعة التقرير السنوي، لا لتسدَّ – مثلاً – مكان الأستاذ صالح.

وأردُّ على الفور بحزم:

– أرجو عدم ربط شيء بشيء، وداد انتقلت إلى هذا المكتب لأنَّها في الأساس معيَّنة بوظيفة ضاربة آلة كاتبة، ولكنَّ مباشرتها العمل في مكتبنا تأخرت، والتقرير السنوي هذا أوانه، وكل سنة في مثل هذا الوقت نعمل في طباعته، والأستاذ صالح ما يزال مكانه شاغراً، وعندما يخرج من المستشفى يرجع إلى موقع عمله.

وداد تشعل سيكارتها، سناء تتكلم:

– أرجو ألا أكون قد قلت شيئاً مزعجاً.

وأتدخل ثانية، فأرد:

– لا، أبداً، وكل ما أرجوه أن نحافظ دائماً على روح الفريق الواحد، بل الأسرة الواحدة.

وداد تنفث سيكارتها، ثم تلتفت إليَّ سائلة:

– أستاذ رياض؟

– نعم.

أذهَل، لا بُدَّ أنها ستدخل في خصام مع سناء، ولكن لِماذا تريد سؤالي؟ هل تستأذنني في خصامها أو الردِّ عليها؟

– على ذكر الأستاذ صالح، بودِّي سؤالك عنه، ما طبيعة مرضه؟

أرتاح إلى سؤالها، أجد فيه فرصة طيبة، أشعر كأنني شربت على ظمأ من ماء مثلج، شربت كثيراً، حتى ارتويت.

– شكراً لسؤالك عن الأستاذ صالح، يا وداد، هذا يؤكد أنّنا في الحقيقة أسرة واحدة، وصدقيني، كنت على وشك الحديث عنه، ولكن اسمحي لي بدقيقة فقط.

وأقلِّب أوراق التقويم الذي أمامي، ثم أتكلم:

– نحن اليوم في الثاني والعشرين من نيسان، بعد ثمانية أيام، ومع الأول من شهر أيار، تنتهي إجازته المرضية، يمكنه بعد ذلك أخذ إجازة بنصف راتب، ومن المؤسف أنني لم أزره منذ أسبوع تقريباً.

– ولكن، ما طبيعة مرضه؟

– التهاب في الكليتين، إحدى كليتيه تالفة، و الأخرى لا تكاد تعمل.

– في أي مستشفى هو؟

– في مستشفى الجامعة.

تطفئ بقية سيكارتها، تصمت، تبدو كمن يفكر بشيء، ثم تتكلم:

– ما رأيك في زيارته اليوم مساء؟ ذكرت أنك لَم تزره منذ أسبوع، ما رأيك في أن نزوره جميعاً هذا اليوم؟

وتلتفت إلى الزميلات قائلة:

– وإن كنت لا أعرف في الواقع الأستاذ صالح، ولكن أظنَّ أنَّ من واجبنا جميعاً زيارته.

وأتدخّل قائلا:

– لا تُحرجي الزميلات، لكلٍّ واحدة ظرفها الخاص، ولقد زرناه نحن جميعاً أكثر من مرة، كنا نخرج لزيارته في أثناء الدوام الرسمي بسيارة تخصِّصها لنا المديرية، وعلى كلٍّ حال، فأنا عازم على زيارته هذا اليوم، ويسرُّني أن نزوره معاً.

وتعلو ثانيةً أصوات الآلات الكاتبة، وتصدح في الجوِّ نكهة الـ"كِنْت"، يمازجها عبق القهوة، وشذى عطر وداد. وخلال ذلك أرى الزميلات يسترقن النظر، تارةً إليها، وإليَّ تارة، بين الريبة والبراءة، بين الشكِّ والاطمئنان، بين العفوية والظنون، أحار في تفسير النظرات.

ولكنْ، ما غاية وداد من زيارة الأستاذ صالح؟

– ٥ –

أصل إلى المستشفى متأخراً، حوالي السابعة والنصف، أدخل البهو فأجد وداد قاعدةً بانتظاري، بين يديها كتاب تقرأ فيه، وأمامها على منضدة صغيرة بضع كراسات وباقة زهر.

تراني مقبلاً فتنهض. كأنني أول مرة أراها، نحلة تصنع العسل، بل حقيقة ملكة النحل، الثوب الأصفر يلتفُّ على قدِّها الرشيق، في بساطة وأناقة، وردة سوداء مطرزة عند الصدر، فوق القلب. تمدُّ يدها، فأصافحها، أحس بيدها ناعمة مثلوجة. أعتذر لتأخري، فتقول:

– لا ضرورة للاعتذار، لقد أفدتُ من تأخرك، فقمت بإجراء بعض الاتصالات، في الحقيقة، الدكتور أحمد زوج شقيقتي يعمل في هذا المستشفى، ولكنه مسافر منذ شهر إلى فرنسة، في بعثة للاطلاع، وكلّ الأطباء هنا أصدقاؤه، ولا سيما الدكتور نديم، وقد اتصلت به للاطمئنان على الأستاذ صالح.

– شكراً لك يا وداد.

– هذا واجبي يا أستاذ رياض، كانت لديّ رغبة حقيقية في زيارة الأستاذ صالح، ولم أكن أعرفه، وحين علمت منك أنه راقدٌ في مستشفى الجامعة ازدادت رغبتي قوة، كي أوصي به لدى الأطباء.

– أكرِّر شكري لك.

– لا ضرورة لذلك، يا أستاذ رياض، وكما قلت لك فهذا واجبي، وعلى كل حال، سأطلب الآن الدكتور نديم، لنَزور الأستاذ صالح بصحبته وبصحبة الدكتور ماجد، المشرف على علاج الأستاذ صالح.

أعلِّق مدهوشا:

– أنتِ عرفت أيضاً الطبيب المشرف على علاج صالح؟

– طبعاً، وإلا فلماذا جئت إلى المستشفى؟ هل لمجرد إلقاء نظرة على الأستاذ صالح، ثم الخروج؟

وتمضي إلى الاستعلامات، تطلب الدكتور نديم.

كم حِرْتُ في تفسير رغبتها في زيارة الأستاذ صالح، يا للحماقة ويا للسخف؟ وأنا أرتشف الشاي بعد الغداء مع زوجتي وابني عماد وابنتي هدى ذكرت إسماعيل، ونحن ندخل على صالح، أنا ووداد، وإذا إسماعيل عنده، يرانا معاً، هكذا ارتسمت الصورة في مخيلتي، وأنا أرتشف الشاي. هل يعقل أن ندخل على صالح الآن فنجد إسماعيل عنده؟ وعندئذٍ يرانا معاً ووداد تحمل باقة الزهر؟

وندخل المصعد معاً، أنا ووداد، وهي تحمل كتبها وكراساتها وباقة الزهر، تقف في المصعد قبالتي، أصغي إلى نداء عطرها القادم من بعيد بعيد، كأنه نداءٌ صامتٌ من عالم مجهول، يبدو أنها لَم تغدق كعادتها من ذلك العطر، مقدرةً زيارتها لمريض، وإذا تلك الأشذاء الناعمة أكثر سحراً من السكب الغامر. تلتقي أنظارنا، فتبتسم بعفوية.

– أنا آسف يا وداد، نسيت إحضار أيِّ شيء معي.

– أستاذ رياض، لا ضرورة فيما بيننا للأسف ولا الشكر ولا الاعتذار.

وتصمت هنيهة، ثم تضيف:

– هذا الزهر باسم كلِّ العاملين في مكتب الآلة الكاتبة، ولا سيما الأستاذ رياض، مدير المكتب.

وأمام غرفة صالح نلتقي بالدكتور ماجد والدكتور نديم، وبعد تعارف سريع ندخل معاً.

أبتهج لمرأى صالح، هو قاعد في سريره، وليس بالراقد، في الأسبوع الماضي كان أشدَّ نحولاً مما هو عليه الآن، وكان أكثر شحوباً، يبدو لي وجهه الآن مشرقاً، وينفرج الفم عن ابتسامة مرهقة.

– أهلاً، أستاذ رياض.

– أهلاً، أقدِّم لك زميلة جديدة، وداد.

تمدُّ إليه يدها، تشدُّ على يده، تضع إلى جانبه باقة الزهر، أرى في عينيه التماع وميض ذاهب.

- شكراً، شكراً.

هكذا يهمس لها، ثم يلتفت إلي، ليضيف:

- أستاذ رياض، أرجو رفع طلب منحي إجازة جديدة.

أشد على يده، وأنا أقول:

- لا تقلق.

خارج غرفة صالح نقف، الدكتور ماجد يتكلم:

- أمس فقط اقترحت نقله إلى العاصمة في سيارة إسعاف خاصة، الأجهزة هناك أكثر تطوراً، كليته الثانية تكاد تتلف، وكنّا على وشك نقله اليوم، ولكن طرأ عليه تحسُّنٌ مفاجئ، لذلك أجّلنا نقله، يوماً آخر.

وداد تتكلم:

- بصراحة أفكر بالاتصال هاتفياً هذه الليلة بالدكتور أحمد، ليوفِّر له فرصة العلاج في فرنسة.

ويرد الدكتور نديم:

- لا ضرورة لذلك.

ويضيف الدكتور ماجد:

- إذا نقلناه إلى العاصمة فسأكون أنا مرافقاً له.

وتسأل وداد:

- إذا كان يحتاج لنقل دم فأنا على استعداد للتبرع له الآن.

ويرد الدكتور نديم:

- شكراً، عندنا في المستشفى دائماً احتياطٌ كافٍ.

نشكر لهما جهودهما، نودعهما، ونخرج.

وأنا أصافحهما مودعاً، أذكر إسماعيل، ليته معنا، ليسمع ويرى.

- ٦ -

على الرصيف، أمام مدخل المستشفى، أقف قبالة وداد، أهمس لها:

- أحيي مواقفك كلَّها، في المكتب والمستشفى، وكما قلتِ أنت يا وداد، لا ضرورة فيما بيننا للشكر، لأنَّ ما في النفس أكبر.

وترد على الفور:

- إذن، يمكنني القول: سنشرب القهوة الآن معاً، بدلاً من قولي: أرجو قبول دعوتي إلى فنجان قهوة.

أحار، أتردد، مصابيح الشارع وأضواء مدخل المستشفى تنير وجهها المرفوع نحوي، أرى شمم أنفها، واندفاعة فمها، وتألُّق جبينها. تضيف بلطف:

- أنا متعبة، وبحاجةٍ للحديث معك، سنشرب القهوة في مقصف شهباء الشام، هو قريب من هنا.

ونسير معاً.

على الرصيف المقابل شباب وصبايا، عجلات السيارات لها هسيس هادئ وهي تنْزلق على الإسفلت المبتلِّ برذاذ نيسان الناعم. تحت مصابيح الشارع تتألق زاهيةً خضرةُ الأشجار المنداة. الرذاذ الناعم يندِّي جبهتينا، ونسمات ربيعية تلسعنا بشيء من البرودة الناعشة، والصمت المقدس يلفنا.

نبلغ فندق شهباء الشام، والرذاذ بدأ يَنْهَلُّ مطراً، وفي السماء بروق ورعود بعيدة. ندخل معاً مقصف الفندق، تحتوينا العتمة وأضواء الموائد الخافتة، يلفنا همس غناء مفعم بالشجى، يبثُّه المسجِّل في أرجاء المقصف.

- هل تعجبك هذه الطاولة؟

- يعجبني ذوقك يا وداد.

ونقعد متقابلين، تضع كتبها وكراساتها على الطاولة التي تفصل بيننا، بل التي تصل بيننا. نحن معاً في زاوية من المقصف، الزجاج على يميني يشف عن الشارع وحركة السيارات والمارة، الزجاج يعكس صفحة وجهها. لا تنتظر حتى يأتي النادل، تشير إليه، تطلب القهوة. تمسح كتبها وكراساتها من رذاذ المطر الناعم، تفتح حقيبة يدها، تخرج علبة الـ"كِنْت"، تستلُّ منها سيكارتين، تمدُّ يدها إليَّ بواحدة، وتهمس:

– أرجو أن تقبل مني سيكارة واحدة فقط.

أتناول منها السيكارة، تقدِّم إلي قداحتها، فأعلق:

– قبلت منك السيكارة، ولكني لن أدخِّنها، سأحتفظ بها للذكرى.

تشعل هي سيكارتها، تنفث الدخان، تتكلم:

– فوجئت كثيراً بالأستاذ صالح، لم أتوقع أن أراه على مثل هذه الحالة.

– لو كنتِ رأيتِهِ الأسبوع الماضي لذهلت.

– كان الله في عون زوجته وأولاده.

– هو غير متزوج.

– غير معقول!!

– هذا هو الواقع، يا وداد، كان، مثله مثل أي شاب، يحلم بالزوجة والبيت والأولاد، ولكنه كان يرى هذه الأمور العادية من خامس المستحيلات، توفِّي أبوه، كما حدثني، وهو في المرحلة الإعدادية، ترك المدرسة، عمل في عدة مهن، ليعيل أمه وأخواته الثلاث، ثم تدرب على الآلة الكاتبة، ظنَّ في الوظيفة خلاصه، وإذا فيها شقاؤه.

– كلنا وقعنا في هذا الفخ.

– هذه هي الحقيقة يا وداد، على كل حال، أنا شجعته، وهو في الوظيفة، على متابعة الدراسة، نال الشهادة الإعدادية، ثم الشهادة الثانوية، ولكن كان مستحيلا بعد ذلك انتسابه للجامعة، كان

يعمل بعد انتهاء الدوام الوظيفي في مكتب خاصٍّ للضرب على الآلة الكاتبة، كان يعمل بأجر زهيد جداً، ثم اشترى بالتقسيط آلة كاتبة، ليعمل في البيت بعد انصرافه من المكتب، لا يمكن أن تقدِّري حجم شقائه وتعبه.

النادل يحضر القهوة.

هل أحدِّثها أيضاً عن أخته المطلَّقة بعد شهرين من زواجها؟ رجعت إليه، فإذا هو مقيَّد بها وبأمه، هي أخته الصغرى، أكّد لي أنه لن يتزوج لأجل أمه وأخته، بعد ذلك كله أين سيتزوج؟ الدار التي يعيش فيها ليس فيها سوى غرفتين، وهي شقة تحت الأرض، تنْزل إليها بثلاثين درجة، لا ترى النور ولا تعرف الهواء.

وتسألني:

– ومتى تعرّفت إليه؟

– عُيِّنَ في المديرية قبل عشر سنوات، كان شاباً في الخامسة والعشرين.

تسأل مدهوشة:

– وهذا يعني أنّه الآن في الخامسة والثلاثين؟

وأشير بالإيجاب مؤكداً، وأنا أرشف القهوة، فتعلق:

– غير معقول، يبدو كأنه في الخامسة والأربعين؟

– صدقيني يا وداد، كان مثل جواد عربي أصيل، لا يتوقع أحد أن يأكله المرض، ولكنَّ الوظيفة فعلت فيه فعلها، لم تتلف كليتيه فقط، بل أتلفت كلَّ شيء فيه، أنا لست طبيباً، ولا أعرف شيئا في الطب، ولكن ظني أنَّ القعود وراء الطاولة للضرب على الآلة الكاتبة طوال ثماني ساعات متصلة هو الذي أتلفه، بالإضافة إلى القهر والقلق والتوتر، وفوق ذلك كله شعوره أنه يكدح ليل نهار، من غير أن يحقق أي شيء.

هكذا أتحدث، وهي تنظر إلي ذاهلة، جامدة الحدقتين، تنظر ولا ترى، كأنَّ أفكارها تمخر عباب بحار ومحيطات. أصمت هنيهة، وأرشف القهوة، ثم أتكلم:

– **صدقيني يا وداد، لا أبالغ، هذا ما تصنعه بالإنسان الوظيفة.**

تردُّ على الفور:

– **أعرف ذلك.**

ترشف آخر قطرة في فنجانها، تطفئ بقية سيكارتها، تتكلم بانكسار:

– **الوظيفة فعلت بي أكثر وأكثر.**

وتطرق، ثم ترفع رأسها، الدمع جامد في حدقتيها، تشير إلى النادل، تطلب القهوة ثانية، تلتفت إلي، تبتسم، تهمس:

– **اعذرني، أستاذ رياض.**

أعلق:

– **بصراحة، آلمني كثيراً ما حصل اليوم في المكتب، وأنا، كما قلت لك، أقدر موقفك، وعلى كل حال، اعذري الزميلات، واعذريني أنا أيضاً، كل واحد منا، نحن البشر، مجموعة من العقد والأزمات والمشكلات، هذا هو الواقع.**

– **أشكرك، أستاذ رياض، وأقدر نبلك.**

هكذا ترد، وهي تبتسم، ثم تصمت، تطرق قليلاً، ترفع رأسها، تتردد، ثم تتكلم:

– **ما حصل اليوم في المكتب أمر لا يذكر، وليس هو ما أعنيه، وعلى كل حال، أسأل نفسي دائماً، لِماذا نزيد حياتنا وحياة الآخرين تعقيداً؟ لماذا لا نفعل العكس؟ لِماذا لا نغير الواقع؟**

– **هذا ما كان صالح يطمح إليه، ويحاول تحقيقه.**

وعلى الفور تتكلم:

– **إذن، لا فائدة، كل الجهد ضائع، لذلك، سأترك الوظيفة.**

وأهمُّ بالكلام، فتندفع قائلة:

– أرجوك، أستاذ رياض، لا تحاول إقناعي، الكلام شيء، والواقع شيء آخر.

ويخيِّم الصمت. الرعد يقعقع مخترقاً هدوء المقصف، دفقات من المطر السكب تضرب الزجاج، البروق تقدح كاشفةً الزوايا المعتمة. أضواء الموائد الخافتة ترشح على الوجوه المصبوغة ألواناً باهتة، لغط الرواد يتماوج، تتخلله ضحكات رخوة، وهسهسات مثل ذباب أو بعوض عالق بسائل لزج. مع أنَّ صالح رقيق ونحيل، فقد بدا لي سريره ضيقاً، ضيقاً جداً، وصالح ملقًى فيه مثل نايٍ ناحل، لست أدري لماذا أسِرَّةُ المستشفى ضيقة بهذا الشكل؟ الوردة السوداء المطرزة على الثوب فوق الصدر عند القلب، تبدو مثل دوامة في المحيط، تغوص عمقاً، تحفر في القلب. السماء تنغلق على الأرض، مثل غطاء صندوق عتيق. النادل يحضر القهوة. وداد تشعل سيكارتها، تنتظر تناولي الفنجان، ولكن انتظارها يطول، فتسأل:

– لن تشاركني الفنجان الثاني؟

– اعذريني.

تأخذ رشفة من فنجانها، تطفئ سيكارتها، ولم تتمّها، تنظر إلى ساعة يدها، ثم تهمس سائلة:

– هل تودُّ الخروج، أستاذ رياض؟

ونخرج من المقصف معاً. المطر ينهمر غزيراً. رعود بعيدة تنذر بالمجهول. وتحت المطر السكب، تنطلق بنا سيارة الأجرة.

- ٧ -

لا أعرف ما الذي انتابني ليلة أمس؟

مهما يكن فلن نلتقي مرةً أخرى خارج المكتب، وسأغيِّر من معاملتي لها، هي مجرد زميلة، ولا علاقة سوى علاقة العمل، خطئي أنني تعاملت معها منذ اليوم الأول بعفوية مطلقة، العمل هو العمل، ولا شيء سواه. لا أعرف ما الذي عكّر مزاجي؟ فجأة، ونحن في المقصف، أحسست كأنني أختنق، هل هو لغط الرواد؟ هل هو المطر والرعد؟ هل هو تأثري بزيارة صالح؟ المقصف رائع، والقهوة فاخرة، وداد أمامي زنبقة متفتحة، والأجمل أنها تعاملني بعفوية، وتتقبل كلَّ تعليقاتي ببساطة ومرح. لا أعرف لِماذا أنهيت هكذا السهرة سريعاً؟ لماذا رفضت فنجان القهوة الثاني؟ لا أجمل من انطلاق السيارة بنا تحت المطر، ونحن معاً، في الجو الدافئ العاطر داخل السيارة، والمسجِّل يبثُّ أغنية عذبة. وهي تنْزل، همست: " **إلى اللقاء**"، أحسست بعد ذلك بالفراغ. ولكن مهما يكن فلن يتكرّر شيء من ذلك، ولن أعتذر إليها، ولن آسَفَ ولن ألتقي بها بعد الآن خارج المكتب أبداً.

وأدخل المكتب، وإذا وداد أمام طاولتي، تمسح الغبار عن أوراق شجيرة اللبلاب، بأناملها.

- **صباح الخير.**

تلتفت إليَّ مبتسمة، وتردّ:

- **صباح النور.**

وأناولها منديلاً ورقياً، فتهمس:

- **لا، وأشكرك، من الضروري أن تشعر هذه الأوراق بلمسة دافئة.**

ويدخل العم محمود، وهو يحمل دورقاً، يهم بصبِّ الماء على أصص الزهر، فتناديه:

- **لا يا عمّ محمود، أرجوك.**

وتسرع إليه، تأخذ منه الدورق، وتمضي إلى الأصص، تغمس أناملها في التراب، تقلّبه، ثم تصب الماء على أناملها، ترشُّ به التراب رشّاً. تلاحظ اندهاشي، فتعلق:

– هذه النباتات تحتاج إلى عطفنا، ونحن نحتاج إلى لمس التراب، كي نذكر أصلنا ومصيرنا.

وتتوافد الزميلات، ترى نظرة الدهشة في العيون، فتعلق:

– هذه هي هوايتي المفضلة، تعلّمتها من جدتي وأنا صغيرة، كنا نعيش في دارٍ عربية ذات فناء واسع، حافل بأصص الورد والقرنفل وعرائش الياسمين.

تتابع تقليب التراب، ورش الجذور، ثم تضيف:

– مع أن دارنا الآن صغيرة، فإنَّ غرفة الجلوس أشبه بغابة، وحدي مَنْ تُعنى فيها بالأزهار والنباتات، وتسرني جداً زيارة الزميلات والأستاذ رياض.

ويُحضر العم محمود القهوة. وداد تقعد وراء طاولتها، تفتح حقيبة يدها، تخرج زجاجة عطر ترشُّ بها أناملها، ثم تشعل سيكارتها، وترشف القهوة. نكهة الـ"كنت"، وعبق القهوة، وشذى عطرها المميز، أنغام متجددة دائماً.

وتتوافد الكتب، ويبدأ العمل.

ويرنُّ جرس الهاتف، أرفع السماعة، وإذا إسماعيل، وأنظر إلى ساعة يدي، وإذا هي الثامنة والنصف. ماذا يريد أيضاً؟ هل يودُّ تذكيري بالدوام الإضافي مساء؟ أم هل يودُّ شرب القهوة في مكتبنا؟ وأذهل.

– لا أصدق؟ أنا قادم حالاً.

وأضع السماعة، وأنهض، وداد تتوقف عن الضرب على الآلة الكاتبة، أتجنب النظر إليها، أمضي في المكتب، أتّجه نحو الباب، الصمت يخيم، أتوقف، أرجع قليلا، أتكلم:

– صالح تُوفِّي.

وداد تصيح وهي تلطم خدها:

- غير معقول؟

منى تغطي وجهها بيديها وتنشج في بكاء متصل.

سناء تعلق:

- وأسفاه على شبابه.

دلال تعلِّق:

- هذا خيرٌ له من الشقاء، أراح واستراح.

هيام تضيف:

- يا خسارة أخلاقه الطيبة.

وداد تشعل سيكارتها، تنهض، تتجه نحوي، تسأل:

- متى تُوقِّعي؟

- لا أعرف.

- ومن أخبرك؟

- الأستاذ إسماعيل.

تعلِّق:

- إسماعيل، إسماعيل، ليس عنده سوى الأخبار السيئة.

تنفث دخان سيكارتها، وتسأل:

- لعله يمزح؟

- لا يا وداد، لا مزاح في هذا الموضوع، هو الآن بانتظاري، سنذهب معاً إلى المستشفى، وسنشارك في تشييعه.

وداد تسأل:

- هل من الممكن ذهابنا كلنا معكم؟

- لا يا وداد، أرجو متابعة العمل، سأرجع قبل نهاية الدوام.

- ٨ -

أرجع إلى المديرية أنا وإسماعيل حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر.

- تفضل لنشرب القهوة في مكتبي.

هكذا يدعوني إسماعيل، وأردّ عليه:

- أشكرك، يجب أن أطمئن على سير العمل في المكتب.

- على كلِّ حالٍ سنلتقي مساءً، في الدوام الإضافي، وسنشرب القهوة في مكتبي، ولن تأخذك وداد مني.

أنظر إليه ملياً، ثم أرد:

- أستاذ إسماعيل، أرجو عدم الحديث في هذا الموضوع.

يقهقه، يمضي إلى مكتبه، وصوته يجلجل يملأ البهو:

- لا بُدَّ من العودة إليه بين الحين والحين، لا لشيء، للتسلية فقط.

أمضي إلى المكتب، تبادر وداد والزميلات إلى تعزيتي.

منى تتكلم:

- في حياتي لم أجد مَنْ يخلص في عمله مثل صالح.

تعلِّق وداد:

- هذه نهاية من يخلص في عمله، يموت في عزِّ شبابه.

دلال تضيف:

- إذا أردنا ذكر أخلاقه الحميدة، فلن ننتهي إلى المساء، بصراحة، هو مثال الأخلاق العالية.

سناء تتكلم:

- أرجو ألاّ تظنَّ وداد أننا نقول هذا عنه لأنه مات، لا، هذه هي الحقيقة، كلنا نشهد بأخلاقه العالية.

وداد ترد:

- لا يا سناء، ليس عندي أي نوع من هذا الظنّ.

هيام تتكلم:

– كلنا على هذه الطريق، من لَم يَمُتْ بالسيف مات بغيره.

وداد تنهض، تتقدم من طاولتي، تناولني مجموعة من الكتب، وهي تقول:

– هذا العمل، أستاذ رياض، أنجزناه في غيابك، يمكن أن توقِّع عليه، وأنت مطمئن، أنا راجعت عمل سناء ومنى، سناء راجعت عملي، كذلك فعلت كل من هيام ودلال.

– شكراً يا وداد، شكراً لك ولكلِّ الزميلات.

– وهذه كتب أخرى، تحتاج إلى تدقيقك، قبل طباعتها.

وأشرع في توقيع الكتب المنجزة.

العم محمود يحضر القهوة، يوزعها، ويهم بالخروج، فأناديه:

– يا عم محمود، انتظر قليلاً، خذ معك هذه الكتب إلى السيد المدير.

وداد تتكلم، وهي ترشف القهوة:

– تحدثنا في غيابك، أنا والزميلات، وقررنا الإسراع في الطباعة حتى ننجز التقرير في أسبوع، أو أقل، سنعتبر العمل الإضافي تسلية، وفرصة للقائنا.

– يسرني هذا جداً.

منى تتكلم:

– واتفقنا على الذهاب عند نهاية الدوام الإضافي مساء هذا اليوم إلى أم صالح لتعزيتها.

– أقدِّر هذه المبادرة.

منى ترد:

– بصراحة، هي من اقتراح وداد.

– وداد أو أنت أو سناء أو دلال أو هيام، نحن جميعاً أسرة واحدة.

ويـرنُّ جـرس الهـاتف، أرفـع السـماعة، وإذا سـكرتيرة المـدير، تعزيني بوفاة صالح، ثم تضيف:

– طلب مني السيد المدير إخبارك أنَّ الدوام الإضافي سيبدأ يوم السبت القادم بدلاً من هذا اليوم الثلاثاء، لأنه لم يفرغ من إعادة النظر في التقرير السنوي.

وأضع السماعة، وأبلغ الزميلات بذلك، علائم الرضا تظهر على الوجوه.

سناء تعلق:

– وإلى يوم السبت قد يحترق التقرير السنوي أو يضيع.

– تفاءلي بالخير، يا سناء.

هكذا أرد عليها، فتقول:

– كل شيء متوقَّع يا أستاذ رياض، أمس زرت صالح، واليوم شيَّعته.

– لا يا سناء، العمل والمديرية فوق الأفراد، والموت بعد ذلك أمر طبيعي.

وتتدخل وداد قائلة:

– أرجو ألا ننسى الاتفاق على موعد جديد لتعزية أم صالح.

ويُفتح باب المكتب، وإذا إسماعيل.

– آه، هل أنا حقيقةً في مكتب الآلة الكاتبة؟ لا أصدق، ما هذه الزهور والرياحين والأشجار؟ هل أنا في جنة الخلد؟ ومِنْ حولي الحور العين ؟ آه، من حقِّك يا أستاذ رياض ألا تغادر المكتب.

هكذا يتكلم، وهو يمضي عبر المكتب، يتأمل الزميلات وأصص الزهر، إلى أن يصل إلى وداد، فيعلق:

– لا شكَّ في أنَّ السيدة وداد هي التي حولت هذا المكتب إلى فردوس.

وأتدخل:

– أستاذ إسماعيل، أنا والزميلات جميعاً، نعزيك بوفاة الأستاذ صالح.

ويرد، وهو يصطنع الابتسام:

– آه، نسيت، مكتبكم في الواقع يُنسي، أنا ما جئت لمكتبكم إلا لتقديم التعزية، ولأقترح على الزميلات تعزية أم صالح.

وترد منى:

– هذا ما كنا نفكر فيه.

ويعلق:

– هذا شيء جميل، سأدلكم على بيته، وهو يقع في حي الميدان.

أقاطعه متدخِّلا:

– عفواً، أستاذ إسماعيل، من الصعب اهتداء الزميلات إلى بيته، فهو يقع في شارع فرعي، أنا اقترح أن نلتقي هنا الساعة السادسة مساء، وننطلق عندئذ جميعاً.

وتعلق منى:

– لا بأس، فكرة معقولة.

ويتكلم إسماعيل:

– آه، يبدو أنكم نسيتم الدوام الإضافي، عقب انتهائه الساعة السابعة والنصف مساء، نمضي إلى التعزية.

وأتكلم:

– تم تأجيل الدوام الإضافي إلى يوم السبت.

ويسأل مدهوشاً:

– ومن أخبرك؟

– سكرتيرة السيد المدير، منذ دقائق فقط، قبل دخولك.

ويندفع قائلا:

– وكيف لَمْ يخبرني بذلك؟ كيف لم يطلب مني أنا أن أبلغكم؟

وأعلق:

- لكلِّ قاعدة استثناء.

يصمت، يحار، يتردد، ثم يتكلم:

- بل أنا متأكد أنَّ السيد المدير اتصل بي ليطلب مني إبلاغكم بذلك، ولكن يبدو أنَّ اتصاله بي كان وأنا في الطريق إليكم.

بسمات ناعمة تتفتح على شفاه الزميلات.

وداد تعلق:

- هذا يؤكد ضرورة بقاء الموظف في مكتبه، وعدم مغادرته له.

و أتدخل:

- أرجو ألا ننسى موعدنا اليوم، الساعة السادسة، نلتقي في المديرية، لننطلق معاً.

إسماعيل يتكلم:

- على كل حال، لا تنتظروني، أنا قد أسبقكم إلى دار أم صالح، فأجدكم هناك، أو على الأقل، إذا شئتم، انتظروني إلى السادسة والربع.

وأدعوه إلى القهوة، فيجيب، وهو يتجه نحو الباب:

- سأشربها غداً في الصباح، القهوة في الصباح أجمل، ولا سيما في هذا الفردوس، مع الحور العين.

– ٩ –

يوم ليس كباقي الأيام. الإرهاق يهدني، والحزن على صالح يأكلني، ومع ذلك، أدخل البيت، وإذا ابني عماد يقول:

– مفاجأة سارة.

– هل وصلت موافقة السعودية؟

وتتدخل زوجتي قائلة لعماد:

– انتظر حتى يتناول والدك غداءه.

ولكن عماد يتكلم:

– السفارة اليمنية تعلن عن حاجة اليمن إلى عدد من الموظفين الإداريين، في عدة شركات ومؤسسات حكومية.

– والشروط؟

– كلها متوافرة، إجازة في الحقوق، خبرة خمس سنوات في أيِّ وظيفة كانت.

ويصمت، ثم يضيف:

– وبالإمكان توقيع العقد والسفر فوراً، بعد مقابلة اللجنة المختصة في السفارة.

وأسأله:

– آخر موعد لتقديم الطلبات؟

– مرَّ على الإعلان شهر، اللجنة ستغادر غداً.

ونجتمع إلى المائدة، ابنتي هدى، وابني عماد، وزوجتي، وأنا. نتداول الموضوع، لا خلاف حول ضرورة السفر، يبدو أن لا أمل في موافقة السعودية، تأخّرتْ كثيراً، فلتكن اليمن إذن. على كل حال، هي مجرد محاولة، ولا ضيرَ في تقديم طلب جديد. وإذن، عليَّ قبل الذهاب إلى المديرية الساعة السادسة، المرور بمحطة القطار، لنحجز إلى العاصمة، في رحلة الساعة الثانية عشرة من منتصف الليل. وهل

يمكن، قبل ذلك كله، أخذ قسط من الراحة؟ هل بإمكان الذهن أن يرتاح قليلاً؟

حوالي الثامنة والنصف، نخرج معاً من منزل أم صالح، أنا ووداد. التأثر الشديد واضح عليها، عيناها محمرتان من فرط البكاء.

جاءت في ثوب أسود، ولفت عنقها بعصابة سوداء، حين دخلت المكتب شعرت كأنني أراها أول مرة، السواد والحزن جلّلاها عظمة، دلال لم تأت، إسماعيل لم يأت، لدى وصولي إلى المديرية وجدت سناء وهيام تنتظران، ثم جاءت وداد. أخيراً، حوالي السادسة والربع، جاءت منى، هي وخطيبها. انتظرنا إلى السادسة والنصف، حوالي نصف ساعة ونحن في المديرية ننتظر من غير جدوى، أخيراً قرّرنا الانطلاق.

منى لم تقعد سوى نصف ساعة، كانت كما يبدو على موعد مع خطيبها، فخرجت هي وسناء وهيام، خطيب منى أكّد لي أنه سيوصل كل زميلة إلى بيتها، تمنيت لو خرجنا جميعاً، ولكنَّ وداد أبت إلا المكث وقتاً آخر، شعرت كأنها ترغب في النوم عند أم صالح، والبقاء عندها لمواساتها يومين أو ثلاثة، بكت حقيقة كأنها أمه أو أخته، اقتربت الساعة من الثامنة والنصف وإسماعيل لم يأت، أشرت إليها فنهضت.

خارج المبنى، على الرصيف، تقف وداد، تهمس لي:

- أستاذ رياض، أرجو أن نبقى قليلاً معاً، لديَّ رغبة كبيرة في الحديث معك.

- هل نمضي إلى مقصف شهباء الشام حيث كنا أمس؟

- لا، لن نذهب، شعرت أنك لم ترتح إليه في اللقاء السابق.

ونمشي معاً على الرصيف صامتين، يعصف بنا هواءٌ محمل بالأتربة والغبار، وفجأة تشير إلى سيارة أجرة، وتهمس لي:

- على كل حال، هيئتي ووجهي ودموعي، كل ذلك لا يتناسب وجو المقصف.

ثم تضيف، وهي تفتح باب السيارة:

– سنسهر في بيت أختي.

أقف هنيهة، أتردد، ثم أجدني مضطراً إلى الدخول إثرها في السيارة، وهي تقول للسائق:

– إلى حيِّ منتزه السبيل.

في الصباح كنت عازماً على معاملتها بجدّ، وعدم تجاوز علاقة العمل، وعدم لقائها خارج المكتب، هأنذا أجدني معها، منساقاً إلى بيت أختها.

وتنزل من السيارة. على الرصيف، ونحن نسير معاً، أقول لها:

– أرجو ألا تُفاجَأ أختك بالزيارة.

تلتفت إلي، تهمس، مبتسمة:

– أختي ليست في البيت، أختي في بيتنا منذ شهر، ألم أخبرك أنَّ زوجها مسافر؟

في باب البناء أقف، أطرق، تقف قبالتي، تسألني:

– هل تخاف وجودنا وحدنا معاً في البيت؟

– لا ليس هو الخوف.

– وإذن؟

– لا أعرف.

– هل تشكُّ بي أو بنفسك؟

– وكيف أشك؟ والشقاء هو الذي يجمعنا؟

– إذن، تفضل.

ونصعد الدرج معاً.

وتدير المفتاح في باب الشقة، تفتح الباب، وتحتوينا الدار. ألتفت إليها، وهي تضيء النور، وتغلق الباب ورائي، فتقول:

– تفضل إلى هنا.

وتشير إلى غرفة الضيوف.

وأتخذ موضعي في مقعد في عمق الغرفة، وترتمي هي في مقعد آخر مقابل، قائلة:

– أنا متعبة جداً، أستاذ رياض.

تخرج علبة الـ"كنت" من حقيبتها، تستل سيكارة، تشعلها، ثم ترمي بالعلبة والقداحة على منضدة صغيرة، تتوسط الغرفة.

– أشكر لك تلبيتك دعوتي، أستاذ رياض، واعذرني، فكرة لقائنا معاً في دار أختي طرأت على بالي ونحن على الرصيف معاً، والريح تعصف بنا.

وتصمت، تنفخ دخان سيكارتها، ثم تضيف:

– على كل حال، أنا طوال الشهر الماضي مقيمة في دار أختي، في الداخل ستجد كتبي وكراساتي وثيابي، أنا أمضي هنا من الوقت أكثر ما أمضي في بيتنا، أرجو أن تصدقني.

– أنتِ عندي دائماً مُصَدَّقة، يا وداد.

تنتقل إلى مقعد آخر، بجوار الهاتف، وهي تهمس:

– شكراً، أستاذ رياض، ولكن فقط، اسمح لي بدقيقة واحدة.

وتدير قرص الهاتف عدة دورات، ثم تتكلم:

– عهد.. مرحبا.. وصلت الآن إلى البيت... متعبة جداً... يا للمسكين، كيف عاش ذلك الرجل، وكيف مات؟ هل هذه حياة؟!.. داره قبو، نزلنا إليها أربعين درجة، لا ترى النور ولا الهواء... ماذا أحكي لك؟ سأحدِّثك فيما بعد... لا أحد يتصل بي... لا أعرف..... لعلي أنام، أو لعلي أضجر فآتي... قبلاتي إلى أمجد، قبليه في عنقه نيابة عني.... سلامي لأمي وأبي، مع السلامة.

تضع سماعة الهاتف، ثم تنطلق قائلة:

– أوه، أستاذ رياض، لو ترى ابن أختي أمجد، عمره سنة، يحبو على الأرض، يستند إلى المقاعد، يصيح "ماما، ماما"، أناديه، فيسرع نحوي، أحمله، أضمه، أخبئ وجهي في عنقه، أنسى الدنيا

كلها، كم عنقه دافئ وناعم، وهو يشد خصلات شعري بأصابعه الصغيرة.

تتكلم، وتشير بيديها وبعينيها ورأسها، الحياة تنهمر من أطراف أناملها، تتألق في عينيها، تتفجر في خصلات شعرها.

وتصمت فجأة، تطفئ سيكارتها، قبل أن تتمها، تطرق، تصمت، ثم ترفع رأسها، والوجوم الثقيل يخنقها، ثم تتكلم والدمع محبوس في عينيها:

– أستاذ رياض، صدقني، لو رجعت إلى البيت وحدي لكنت سأجن، لا أصدق، شاب يموت ولا أحد في مأتمه؟ سوى أمه وأخته وبعض الجارات؟ قلت لي إنَّ له ثلاث أخوات، لم أجد سوى واحدة؟!

– كل واحدة من الأخرَيَيْن متزوجة في بلد، ويبدو أنَّ الخبر لم يصل إلى أيٍّ منهما.

– وأقاربه؟ أين الأقارب؟!

– آه يا وداد، لو شهدت تشييع جثمانه، لَم يكن في المقبرة سوى حفار القبور وعمال الدفن، وإسماعيل وأنا، واثنان أو ثلاثة فقط من جيرانه، وبعض العابرين بالمقبرة مصادفة.

وأصمت هنيهة، ثم أضيف:

– والأصعب من ذلك كله يا وداد، نقله من المستشفى.

– ومن نقله؟!

– أنا وإسماعيل، نزلنا إلى ثلاجة الموتى، هي في القبو، أدراج تقود إلى أدراج، المصعد كان عاطلاً، أدراج ضيقة رطبة معتمة، ثم أخذ وقع أقدامنا على الدرج يتردد صداه، بلغنا فسحة قبو واسع، ليس فيه سوى مصباح ضئيل، ظلالنا كانت ترتسم على الجدران، وبرز لنا عامل الثلاجة كهل شاحب، مَيْتٌ ينهض من عالم الموتى، وإذا هناك أبواب، فتح العامل لي باباً، فتدفق نحوي هواء مثلوج، وكان عليَّ أن أدخل حجرة صغيرة، كالسرداب، وانحنيت فوق جثمان مسجًّى على

نقالـة، مغطًّـى بمـلاءة بيضـاء، لا، لـيس هـو، ودخلـت حجـرة ثانيـة، وثالثة، ورفعت الملاءة عن الوجه وإذا هو صالح.

– لم تخف أستاذ رياض؟

– لا، يا وداد، لم أخف أبداً، بل شعرت نحوه بالحب، وبالعطف، أكببت على وجهه، قبّلته في جبينه، وددت رفعه، احتضانه، ولكن، دفعت النقالة التي كان مسجًّى عليها، ثم خرجنا به أنا وإسماعيل، ملفوفاً بالملاءة البيضاء، خرجنا من باب خلفي.

– أقدر شجاعتك، أستاذ رياض.

– لا يا وداد، ليست هي الشجاعة، لأنَّ الشجاعة تكون في مواجهة العدو، وإنما هي المحبة، صدقيني يا وداد، كنت أعامل جثمانه كأنني أعامل الجسد الحيّ، بل كأنني أعامل طفلاً صغيراً، ونحن ننْزله إلى القبر، جذبه حفار القبور بشدة، فصحت به، من غير أن أشعر: "انتبه إلى ظهره، حتى لا يصيبه طرف الحجر"، لم يخطر على بالي على الإطلاق أنَّ صالح مجرّد جثة.

وداد تفكُّ العصابة المحيطة بعنقها، تشعل سيكارة، تنفث الدخان، وتتكلم:

– أمر غريب، دائما أسمع عن وجه الميت، لعلك لم تخف لأنك تحبه.

– لا شيء يخيف يا وداد، لو رأيت وجه صالح لقلت هو نائم، بل أجمل من نائم، هو مستسلم لإغماضة ناعمة، وكأنَّ حلماً جميلاً يداعب أجفانه المطبقة، وعلى فمه ابتسامة هادئة، وغرته مائلة على طرف جبينه.

– أستاذ رياض، اسمح لي بدقائق فقط، سأعد القهوة.

وتنهض، فأنهض إثرها، أتكلم:

– وداد، اعذريني، أرجو ألاّ أكون قد أزعجتك لاسترسالي في الحديث.

– لا، لا أبداً، حديثك يا أستاذ رياض، أراحني، من الضروري أن نتحدث في هذا الموضوع، هذا أفضل من أن يبقى في نفسي أو نفسك.

وفي باب الغرفة تقف، لتقول:

– الحمام هنا، أرجو أن تتصرف كأنك في بيتك، يسرني جداً أن تتصرف بحرية.

وتمضي إلى المطبخ.

من وراء زجاج النافذة تتألق مصابيح متنزَّه السبيل، مرسلة أضواءها الزاهية إلى أشجار الصنوبر والسرو الباسقة، وهي مندّاة برذاذ نيسان الناعم، فتتألق خضرتها، وتنسكب الأضواء على البركة، وهي تتوسط المتنزّه، فنتشارك الأمواج تراقصها البهيج. أطياف الرواد من الرجال والنساء والصبايا والشباب تتهادى في دروب المتنزه، خلال مروج مزهرة، تتراكض فوقها خيالات أطفال يمرحون ويتنادون، نسمات نيسان تنعش أرواحهم. وعلى الجدار المقابل للنافذة، حقل أجرد محصود، غلال بعيدة بعيدة، قرية نائية عند الأفق، امرأة وحيدة، تقف حزينة مطرقة، يلفها الصمت وكدرة المغيب، يداها مضمومتان إلى صدرها، كأنها تصلي.... لوحة كئيبة كئيبة.

ويأتيني صوتها من المطبخ، سائلة:

– أستاذ رياض، متى حصلت وفاة صالح؟

وأمشي في الردهة، صوب المطبخ، وأنا أجيبها:

– بعد خروجنا من زيارته ليلة أمس، حوالي التاسعة.

وداد تصيح، وأنا أدخل المطبخ:

– يا إلهي، صدقني، في ذلك الوقت، ونحن في المقصف، أحسست كأنني أختنق، أحسست أنك ضجر، نظرت إلى ساعة يدي، لعلك لاحظت ذلك، كانت حوالي التاسعة وسألتك: هل ترغب في الخروج؟

وتفور القهوة، تنسكب على الموقد، وداد ترفع القهوة عن النار، وتسأل:

– هل تذكر ذلك؟

– أجل، صدقيني يا وداد، أحسست بمثل ما أحسست به، ولكن لم أستطع تفسير ذلك، مرَّ بخاطري صالح، تذكرت سريره الضيق، وهو ملقًى فيه، قفز إلى خاطري شعور غريب، لم أتبين ما هو، ولم أستطع الإفصاح عنه.

وداد تسكب القهوة في الحوض، وهي تتكلم:

– اعذرني، إذا فارت القهوة فلا أشربها، لأنَّ نكهتها تذهب.

وتبدأ بإعداد قهوة جديدة، وأنا واقف أراقبها، وهي تتكلم:

– أستاذ رياض، أحسُّ أحيانا أنني سأموت مثل صالح، وحدي، لا أحد من حولي.

– المعايير في لحظة الموت تختلف، يا وداد، عن المعايير في لحظات أخرى، قد يموت إنسان وحوله قبيلة، فيجد الموتَ أصعب من إنسان آخر يموت ولا أحد من حوله.

– صدقني يا أستاذ رياض، أحس أنني أكرر قصة صالح، كأنني سأعيش مثل حياته، هأنذي أبدأ العمل في الخامسة والعشرين، في المكتب نفسه الذي بدأ هو فيه العمل، وعلى الطاولة...

أقاطعها:

– لا يا وداد، الحياة لا تكرر نفسها، وأنت ستكون لك حياتك.

وداد تحمل القهوة في صينية مع فنجانين، وتلتفت إلي، تسأل:

– ما رأيك بشرب القهوة في غرفة الجلوس؟

– لا بأس.

وندخل معاً غرفة الجلوس، أستقرُّ في مقعد عريض، تضع القهوة على منضدة صغيرة أمامي، ثم تهمس:

– اسمح لي بدقيقة واحدة.

وتمضي إلى غرفة أخرى.

أحس حركتها، صوت خزانة تفتح، هسيس أثواب ترمى، دفق عطر فاغم يتسرب إليَّ شذاه. وتدخل عليَّ في ثوب زاهي الألوان، طويل إلى الأرض، ينسدل على جسمها في لدونة، وهي تميس به، وبين يديها علبة الـ"كنت" وقداحتها. تقعد على الأرض أمامي، تصبُّ القهوة، تمد إلي يدها بالفنجان، وتهمس:

– **ما رأيك في سيكارة؟**

– **لا، وأشكرك.**

تستل سيكارة، ترشقها بين شفتيها، ثم تشعلها، تنفث الدخان، تأخذ رشفة من قهوتها، ثم تنهض، وهي تميس في ثوبها المنسدل على جسدها، تتجه إلى ركن في الغرفة، حيث المسجِّل، ولكنها تلتفت إليّ، ترفع يدها بالشريط سائلة:

– **يعجبك محمد عبد الوهاب؟**

أرى سواراً في معصمها، سواراً من جلد، كأنه أفعى، كأنه أفعى الكوبرا.

أجيبها:

– **يعجبني دائماً ذوقك.**

وتضع الشريط في المسجِّل، وترجع، وهي تميس في ثوبها، تتثنى، وتتخذ موضعها، قبالتي، على الأرض، بجوار القهوة.

وينداح النغم، ينشر سحابات من أشذاء ناعمة، يسبح فيها الخيال، وترقص الأضواء فإذا النيل يتدفق، تتهادى على صفحته المتلألئة مواكب السحر والجمال، وكليوباترة في بهاء.

في حركتها وانسيابها والتفاتتها ولدونة الثوب الناعم وقعودها على الأرض ملتصقة بها، أُحِسُّ الكوبرا. في شمم أنفها ووضاءة جبينها وسمو روحها المرحة وذوقها المترف الرفيع، أُحِسُّ كليوباترة. ومحمد عبد الوهاب يشدو لها:

كليوبـــاترة، أي حلـــم مـــن لياليــك الحســـان
طـــاف بـــالموج فغنّـــى وتغنَّـــى الشـــاطئان
وهفـــا كـــل فـــؤاد وشـــدا كـــلُّ لســـان
هـــذه فاتنـــة الـــدنيا وحســـناء الزمـــان

- ذوقك رفيع يا وداد.
- وكذلك ذوقك، يا أستاذ رياض، أنا أقدر لك إعجابك بعطري.
- كيف عرفت أني معجب بعطرك؟
- وهل نسيت ساعة وقفنا معاً في بهو المديرية، بعد خروجنا من مكتب المدير، يوم السبت الماضي؟ نصحت لي آنئذ بالإقلاع عن التدخين، فسألتك: وعطري؟ هل أقلع عنه أيضاً؟ فأجبتني: عطرك مميز، ضعي منه المزيد، هل نسيت ذلك أم هل تنكره؟
- في الواقع أنا معجب بعطرك، وإن كنت حقيقة لا أعرف اسمه حتى الآن.

وترفع يدها، تحرك السوار الذي في معصمها، فأسألها:
- كوبرا؟

وتجيب:
- أجل، هذا هو، كوبرا.
- رائع ومريع.
- وكذلك الكوبرا، ترقص وتقعص، ترقص للفنان الذي يجيد العزف ويحسن تحريك مزماره أمامها، وتقعص كلَّ من يحاول إيذاءها.
- مرة، يا وداد، وأنا شاب، قتلت أفعى.
- وكيف؟
- في عزِّ الظهيرة وأنا قاعد أقرأ، في دار جدّي القديمة، حيث الأسقف الترابية، والخزانات الخشبية، وباحة الدار الواسعة، سمعت هسيس حركة، وإذا أفعى أمامي، أعرف أنَّ في الدار أفعى، وأعرف

أنَّ جدي يؤاخيها، فلا هي تؤذيه ولا هو يؤذيها، وأذكر حكايات جدتي عنها وعن غيرها من الأفاعي، حكايات كثيرة عرفت الأفعى من خلالها قبل أن أراها، ولكن فجأة، رأيت الأفعى أمامي، كنت أقرأ في رواية، وأنا أحلم، أمَنِّي نفسي بلقاء بنت الجيران، تفتح الباب وتدخل عليَّ بضفيرتها الطويلة، وإذا هي حقيقة أمامي، تنْزلق بجسدها اللدن الناعم، لا أحسُّ لا أعي، كأنِّي غائب عن الوجود، قواي كلُّها مركزة في العصا، هي محور وجودي، وتسقط العصا في الرأس، وتهمد الأفعى، فأشعر بالانتشاء بالهدوء بالاطمئنان، ترتخي قواي، أود لو أنام.

– وتشعر بزهو الانتصار؟

– لا، ليس الانتصار، بل شعرت بالتوحُّد معها، وإذا بي أحملها بين يدي، أمجِّد لدونتها وأَلَقَها، أرفعها إلى فوق، وأمضي بها إلى فناء الدار، وهناك أدفنها، وكأني أغرس شجرة، أدرك أنها منحتني معنى الحياة، عرّفتني إلى حقيقتها، كأنني أتيت أول فعلٍ يفصل بين الموت والحياة أو يصل بينهما.

– والآن؟ إذا برزت لك ثانية؟ هل تضع العصا في رأسها؟

– لا.

– إذن، ستعزف لها لترقص.

– لا.

– تضعها على صدرك كما فعلت كليوباترة.

– لا.

– و إذن؟

– سوف أؤاخيها، كما كان جدي يؤاخيها، سأقول لها: اذهبي يا مباركة، بل يا رائعة، سأتركها تعيش، تنطلق، تجدد جلدها، لتعيش ألف عام وعام.

صمت هادئ يصل بيننا، الصمت عنيد. ومحمد عبد الوهاب ما زال يشدو:

يا حبيبي هذه ليلة حبي

آه لو شاركتني أفراح قلبي

وداد ترفع وجهها إليّ، وهي مُقْعِيةٌ أمامي على الأرض، بجوار القهوة، أنفها أشم، جبينها وضّاء، عيناها صافيتان، تبتسم بنقاء، وتهمس:

– أصبُّ لك مزيداً من القهوة؟

أعتذر إليها، فترد:

– بالأمس رفضتَ مشاركتي الفنجان الثاني، وأنا أعرفك لا تتردد في شرب فنجانين أو ثلاثة.

– أنتِ أدركتِ ما انتابني فجأة من اكتئاب.

– حقاً، أدركت ذلك، ومنذ قليل عرفت سببه، ولكن، آه، لو تعرف كم كنت قلقةً عندما عدت إلى البيت، أخذت أفكر، لماذا يرفض الأستاذ رياض الفنجان الثاني؟ هل أخطأت في شيء؟ وبدأت أراجع مواقفي، غضبت، تألمت، حرت في الأمر، قررت مقاطعتك، صدقني، أكلمك بصراحة، ثم قررت الاعتذار إليك، وبحثت عن اسمك في دليل الهاتف فلم أجده.

وأعلق :

– ومرة أخرى عدتِ إلى مخاصمتي، وقررتِ مقاطعتي.

تضحك، تنفث دخان سيكارتها، تتكلم:

– هذا ما حصل حقيقة، ولكن لم أنم إلا بعد أن عدت إلى مصالحتك.

– ولكن، أنا ما أزال على مخاصمتك.

– وترفض اعتذاري؟

– سأفكر في إمكان رفضه أو قبوله.

– أرجو أن يكون تفكيرك مصحوباً بالفنجان الثاني.

وأمدُّ إليها يدي بفنجاني، فتملؤه. أتملاها ترشف قهوتها، وتنفث دخان سيكارتها، وهي قاعدة على الأرض قبالتي، شذى عطرها الفاغم يسطع في الأرجاء. وتسألني:

– ما زلت تفكر؟

– في أي شيء؟

– هل نسيت؟ في إمكان قبول اعتذاري.

– لا، لا يمكن قبوله.

– ولماذا؟

– لأنَّ لك سابقة.

تسأل مدهوشة:

– وما هي؟

– رفضك من قبل دعوتي إلى فنجان قهوة، هل تذكرين؟

– آه، أذكر جيداً، يوم دخلت أول مرة إلى مكتبك، دعوتني إلى فنجان قهوة، فاعتذرت، يومئذ قلت لي بقدر كبير من الثقة: ولكن قهوتي مميزة، ليست مثل أيِّ قهوة أخرى.

وتضحك، تنفث دخان سيكارتها، وتتكلم:

– يومئذ راودتني أفكار كثيرة، سألت نفسي: ترى هل يعرف الأستاذ رياض غرامي بالقهوة؟ وعلى أي حال، ما غايته؟ هل يتحداني أم يستفزني؟ وما معنى أن تكون قهوته مميزة؟ بل ليست مثل أي قهوة أخرى؟

وترشف آخر قطرة في فنجانها، تطفئ بقية سيكارتها، وتهمس:

– ولكن لا بُدَّ من الاعتراف حقيقة، يا أستاذ رياض، بأن قهوتك مميزة، وليست مثل أيِّ قهوة أخرى.

وأعلق مازحاً:

– لا تحاولي يا وداد، لا هذا الإطراء ولا غيره يمكنه حملي على قبول اعتذارك.

– هذا صحيح، لأنه ليس فيما بيننا ضرورة لأي شكل من أشكال الأسف أو الاعتذار أو الشكر، هذا ما اتفقنا عليه من قبل.

– وإذن، يمكنني الآن الانصراف من غير استئذان.

وأنهض، وتنهض، تقف قبالتي مذعورة، تنظر إلى ساعة يدها، تدهش، تعلق:

– أذهلتني، أستاذ رياض، الساعة الآن التاسعة والربع، لم تكد تمضي على لقائنا ساعة، أغنية كليوباترة لم تتم، كنتُ على وشك النهوض لإعداد العشاء، لا يمكن أن تخرج قبل الثانية عشرة، سنتناول العشاء معاً.

– أشكرك يا وداد، أغنية كليوباترة لن تتم، وأنا يجب أن أذهب، وأرجو منك تسليم هذا الكتاب غداً إلى السيد المدير، يمكنك أن ترسليه مع العم محمود.

وأستل من جيبي ورقة مطوية، أناولها إياها، فتسأل:

– هل هو كتاب استقالة؟

– استقالتي سأحدثك عنها فيما بعد، هذا طلبي إجازةً ليوم واحد، أنا مسافر عند منتصف هذه الليلة إلى دمشق.

تدهش، تتكلم:

– هل سنظل هكذا واقفين في الممر، وراء الباب، أرجو أن تتفضل قليلا إلى غرفة الضيوف، لنتحدث.

وندخل غرفة الضيوف، تشعل سيكارتها، تسأل:

– لم تخبرني بذلك أمس، ولا اليوم؟

– سفر مفاجئ تقرَّر اليوم.

وأحدثها عن كل ما حدثني به ابني عماد، ثم أضيف:

– بعد تناولي الغداء، لم أرتح إلا قليلاً، نزلت إلى محطة القطار، وحجزت في قطار منتصف الليل، ثم اتصلت هاتفيا بالمدير، وأخبرته بطلبي إجازة ليوم واحد، فطلب مني تقديم كتاب خطي.

وأصمت هنيهة، ثم أضيف:

– ثم اقترحت تكليفك بتدقيق الكتب وتصحيحها في غيابي.

– ولماذا لم ترشح أي واحدة غيري من الزميلات، وهنَّ أقدم مني؟

– ليست المسألة مسألة قِدَم يا وداد، وبعد ذلك أنا لم أقترح تكليفك بتصحيح الكتب طباعة فقط، بل اقترحت تكليفك بتدقيقها أيضاً، فأنت في السنة الرابعة في كلية الحقوق، وعلى وشك التخرج، وليس في الزميلات من تحمل شهادة الثانوية سوى مني، وقد ذكرت ذلك كله للمدير.

– وبماذا أجاب؟

– كعادته، لم يصرِّح بجواب، قال: سنرى، غداً، أنا سأكلف من أراه مناسبا.

– وهل تتوقع أن يكلف الأستاذ إسماعيل؟

– لا أتوقع، إسماعيل مكلف بأمور أخرى، وليس عنده بعد ذلك صبر على تصحيح سطرين.

– وإذا وقّعت عقد العمل، أستاذ رياض، فهل ستأخذ استيداعاً؟ أم هل ستستقيل من الوظيفة؟

وأحدثها عن تقديمي طلب الاستقالة منذ أربعة أشهر، وموافقة السيد الوزير، وانتظاري موافقة المدير على الانفكاك، كما أحدثها عن تقديمي طلباً للعمل في السعودية منذ شهرين، وانتظاري من غير جدوى.

وتسأل:

– ولكن، أستاذ رياض، لماذا لا تطلب إحالتك على التقاعد، بدلاً من الاستقالة؟ أليس الراتب التقاعدي أفضل؟

– في الحقيقة أرغب في تعويضي الوظيفي، لعلّي أستطيع به مساعدة ابني عماد على افتتاح مكتب هندسي، مرّ عامان على تخرجه، وهو لا يجد مكتباً يعمل فيه.

– ولماذا لم تخبرني بشيء من ذلك من قبل؟ أمس فقط كنت أحدثك عن عزمي على ترك العمل؟ ظني أنني لو لم أسألك لَما كنت حدثتني بشيء.

– لم أشأ أن أثقل عليك، وأزيد همومك هموماً.

– لا، أنت لا تثق بي، أو تحسبني صغيرة، أو عاجزة...

هكذا تتكلم، بانفعال، وهي تطفئ بقية سيكارتها، ولم تتمها، فأنهض:

– لا، ليس كذلك، صدقيني يا وداد، أشعر كأنني أعرفك منذ ألف عام، ثقتي بك أكبر، وإلا فما معنى استجابتي لدعوتك أمس واليوم؟ وما معنى وجودنا معاً؟

وتنهض، تقف قبالتي، تسد علي الباب، وهي تقول:

– وإذن، كيف تتركني الآن وتمضي؟

– وداد، هذه هي الحياة، أمس زرنا صالح، واليوم شيّعناه.

– إذن، يجب أن نبقى معاً ساعة أخرى.

– بل على العكس، يجب أن أمضي فوراً.

تسكت، تطرق، ترفع رأسها، تهمس:

– أنت تحدثني كأنك مسافر غداً إلى اليمن؟

– لا اطمئني، سأرجع غداً في قطار الساعة الثالثة.

– والآن؟

أصمت، أطرق، أحار، أتردد، ثم أتكلم:

– الآن، سننْزل معا، يجب ألا تبقي هنا وحدك، سأوصلك إلى بيت أهلك، هناك أمك وأبوك وإخوتك، يجب أن تكوني معهم، ولا تنسي ابن أختك، أمجد، سيحبو إليك مسرعاً عندما يراك داخلة، ترفعينه، تضمينه إليك، تخبئين وجهك في عنقه الدافئ.

تسبل عينيها، تطرق.

ونمضي، ننْزل معاً على الدرج.

- ١١ -

القطار يدخل المحطة حوالي العاشرة، متأخراً عن موعد وصوله نحواً من ساعة، أحمل حقيبتي وأنزل.

رحلة مملة مضنية، ولكن العبرة بالخواتيم. الحقيقة لا أعرف كيف تسير الأمور، لا أكاد أصدق؟ خمسة أيام يتغير فيها كلُّ شيء، ومن قبل، يمر أكثر من شهرين، وأنا أنتظر جواب السعودية ولا جدوى. السبت يخبرني المدير بانتقال وداد، والأحد تباشر عملها، الاثنين تبدِّل توزيع الطاولات وتملأ المكتب بالزهور، وفي اليوم نفسه نزور صالح، ونسهر في المقصف، في اليوم التالي أشيِّعه وأسهر مع وداد في بيت أختها، وكأنني أعرفها منذ ألف عام، واليوم، الأربعاء، أسافر إلى العاصمة، في الصباح، وأرجع في المساء، وبعد غد... ولكن هل سيوافق المدير؟ هل يطرأ أمر جديد؟ أموري كلها جاهزة، حتى حقيبة السفر جاهزة، منذ شهرين وأنا أعدُّ نفسي، الوكالة العامة لابني أنجزتها، يستطيع قبض تعويضي الوظيفي في غيابي، جواز سفري جاهز، إذن، لا شيء.

الركاب يغذُّون الخطا على رصيف المحطة متدافعين، يتسابقون على الوصل إلى الساحة أمام المحطة، فلا بُدَّ هناك من التزاحم على سيارات الأجرة.

وداد؟ لا أصدق، تقبل عليَّ بوجهها الوضاء، وبسمتها المرحة.

- **أهلا، أستاذ رياض.**

- **أهلاً وداد.**

وتلتقي يدانا في مصافحة طويلة. ونمضي معاً على رصيف المحطة، نمشي الهوينى، وسط الزحام، هي بقربي، ناعمة، رشيقة، أحس دفئها، أتنسم شذى عطرها. أواخر نيسان ينفحنا نسمات ربيعية ناعشة، محملة ببقايا من برد الشتاء المولي.

- **كيف الرحلة؟**

– مملة من دونك، يا وداد.
– هي مجاملة من غير شك، ولكنّها مع ذلك حلوة ومقبولة.
– بل هي الحقيقة.
– فمك هو الذي يتكلَّم، لا قلبك.
– الفم عند الناس دائماً هو الذي يتكلم، القلب مجرد عضلة تضخ الدم.
– خبرني، ما الذي جرى في السفارة اليمنية؟
– غداً تعرفين كلَّ شيء.
– عرفت منذ رأيتك على رصيف المحطة مقبلاً وسط الزحام.
وتصمت هنيهة، ثم تضيف، ونحن نمشي على مهل:
– وقَّعْتَ العقد، وستسافر بعد أسبوع أو أسبوعين.
– بل ربّما بعد يومين.
تلتفت إليّ، ونحن نغادر المحطة، وتهمس:
– أنت تريد إغاظتي.
الساحة أمام المحطة تغصُّ بالمسافرين والحقائب والسيارات. تلوِّح بيدها إلى سيارة واقفة في زاوية من الساحة، فتتحرك السيارة متجهة نحونا، أعلِّق مازحاً:
– أنت دائماً محظوظة.
– إلا معك.
– هأنذا معك، والسيارة كأنها في انتظارنا.
– بل هي في انتظارنا معاً منذ ساعة، أنا حجزتها فور وصولي إلى المحطة.
وتنطلق بنا السيارة.
وتمر هنيهة صمت، أسالها:
– كيف المكتب؟ والزميلات؟
– فوجئت الزميلات بسفرك، هنَّ يرتحن إليك كثيراً.

– وكيف سار العمل؟

– منى اقترحت عليَّ تدقيق الرسائل بدلاً منك.

– بادرة طيبة، منى ذكية، قدَّرت من غير شك كفاءتك، وهي تعرف أنّك على وَشْكِ التخرج.

– سألتني منى عن كلية الحقوق، وطبيعة الدراسة والمقررات، وأكّدت لي أنها ستنتسب العام القادم إلى كلية الحقوق، كانت تفكِّر في الانتساب إلى قسم اللغة العربية، ولكنها غيّرت رأيها.

– هذا أمر سار جداً، ومطمئن.

– في الواقع بدأت الزميلات بالتجاوب معي.

– والمدير؟

– أرسلت إليه طلبك الإجازة مع العم محمود.

وتصمت هنيهة، ثم تضيف:

– ثم اتصل بي المدير، وكلفني بتدقيق الكتب وتوقيعها، مثلما اقترحت عليه أنت.

– تطور رائع.

– ثم اتصل إسماعيل.

– ماذا يريد؟

– سأحدثك في البيت.

وتصمت، ثم تتكلم:

– بعد انتهاء محاضراتي، في السابعة، ذهبت إلى منْزل صالح، قعدت مع أمه وأخته نحواً من ساعة، للتعزية والمواساة.

ونصل إلى دار أختها. وراء الباب، وهي تضئ النور، تسألني:

– هل ستسافر حقيقة؟

– أرجو أن تحدثيني أولاً عن إسماعيل.

– سأحدثك، ونحن نتناول العشاء، المائدة في انتظارنا منذ ساعتين.

وتتجه نحو المطبخ، أستوقفها، قائلاً:

– لن نتناول سوى القهوة، سنقعد هنا في غرفة الضيوف.

تطرق، تصمت، تمضي إلى غرفة الضيوف، تشعل سيكارتها بعصبية، وأنا أسألها:

– ماذا قال إسماعيل؟

– أعاد كلام المدير، شدّد على أهمية تدقيق الكتب، وتجنُّب الأخطاء.

– وكيف كان ردك؟

– قاسياً، أجبته: هو عملي، وأنا مسؤولة عنه.

تنهض بعصبية، وهي تنفث دخان سيكارتها، تهمُّ بالمضيِّ إلى المطبخ، أسألها:

– ألم يقل أيَّ شيء آخر؟

تهمس، وهي مطرقة:

– سأل عنك، سألني إن كنت أعرف سبب سفرك، سألني لماذا لَم أنتظره في دار أمِّ صالح.

– غداً سأضع حدّاً لكلِّ تصرفاته.

تمضي إلى عمق الغرفة، تنتفض بغضب، قائلة:

– لا، أستاذ رياض، أرجوك، لا تتدخّل في الموضوع.

أدهش، ألتفت إليها، أسألها:

– لِماذا؟

– أخاف عليك، لا أريد أن تحرق نفسك.

– كيف؟ لم أفهم؟

تلقي بنفسها في المقعد، تنفث دخان سيكارتها، تتكلم:

– سأوضح لك الآن كلَّ شيء، يجب أن تعرف. منذ زمن وأنا أمنِّي نفسي بأن أحدثك، إسماعيل هو أداة في يد المدير، والمدير يحاول تشويه سمعتي والإساءة إليَّ، ليثأر لزميله، مديري السابق.

أتَّخذ مكاني في مقعد قريب منها، أسألها:

– لَم أفهم؟ أرجو توضيح كلامك.

تطفئ سيكارتها، تتكلم:

– أستاذ رياض، أنا لم أنتقل من تلك المديرية إلى هذه المديرية إلا هرباً من مديري السابق، خالي سعى إلى نقلي، قال لي : ستعملين في مكتب الأستاذ رياض، أعطاني صورةً وافيةً عنك، لذلك رأيتني منذ اليوم الأول أطمئنُّ إليك.

– ومن خالك؟

– خالي الأستاذ عصام المحامي.

– آه، خالك صديق قديم، ولكن لَم تخبريني بذلك! ولم يخبرني هو أيضا!

– أنا طلبت منه هذا، أردت اختبار كلِّ شيء بنفسي.

– وهو الذي شجّعك من غير شك على الانتساب لكلية الحقوق؟

– أجل.

– خالك، يا وداد، صديق عزيز، وأنا ما أزال مديناً له بالفضل، هو يشبهك في أخلاقك، أقصد أنك تشبهينه.

– أشكرك، في الحقيقة أنا أعتزُّ به، ولم أنتسب إلى كلية الحقوق إلا إعجاباً به.

– صدقيني يا وداد، دائماً أشعر كأني أعرفك منذ زمن بعيد، هذا ما حدّثتك به من قبل، وهذا ما أشعر به دائماً، كأنَّ لقائي بكِ هو امتدادٌ للقائي بخالك، هل تعرفين يا وداد؟ التقيت بخالك في الجامعة، كنت أستعير كراساته ومحاضراته، هو طالب نظاميٌّ مداوم، وأنا طالب منتسبٌ لا أداوم، وأنا موَّظف على الآلة الكاتبة في هذا المكتب نلت إجازة الحقوق.

– ولماذا لَم تترك الوظيفة؟ وتفتح لنفسك مكتباً للمحاماة؟

– لم يكن ذلك بإمكاني يا وداد، ولن يكون، افتتاح مكتب يحتاج على الأقل إلى مليون ليرة، عدا تأثيثه، من أين لي هذا المبلغ؟ لذلك آثرت البقاء في الوظيفة، تقدّمت بطلب لتعديل وضعي، فعيِّنْتُ في وظيفة رئيس قسم، وبقيت في هذا المكتب، رئيساً لقسم الآلة الكاتبة، ثمَّ كلَّفني المدير الأسبق بتدقيق الكتب قانونياً، بالإضافة إلى الإشراف على طباعتها وتدقيقها.

وأصمت هنيهة، ثم أتكلم:

– ولكن أرجو أن يرجع بنا الحديث إلى إسماعيل ومديرك السابق، حتى الآن لَم أفهم شيئاً؟

تشعل سيكارة، تنفث الدخان، وتتكلم:

– مديري السابق كان يضايقني، مرّةً يتودَّد إليّ، ومرة يهدِّدني. المشكلة أنَّني أحبُّ الحياة، أحبُّ أن أعيش، وأصادق الناس، كلَّ الناس. أنا هكذا دائماً، كما رأيتني، أدخِّن، وأشرب القهوة، وأمزح، أودُّ لو أرقص وأغنِّي وأطير، أو لو أرى كلَّ الناس أصدقاء، أدعوهم إلى بيتي، أزورهم. ولكن، من المؤسف أنَّ كلَّ مَنْ حولي يطمع بي، أو يسيء الظنّ، أو لا يفهمني، يظنُّ أني طائشة أو متهوِّرة، كلُّ مَنْ يراني يظنُّ أنِّي فراشةٌ ضعيفةُ الجناح، سهلة الصيد.

وتصمت، ثم تضيف:

– وكنت دائماً يقظةً حذرة، ولكنْ دخل حياتي زميلٌ لي في المديرية، مديرية التصدير التي انتقلت منها، أخذ ذلك الزميل بالتودُّد إليّ، ثم انتقل إلى قسم الآلة الكاتبة، حيث كنت أعمل، تعلقتُ به، أحببته، وتزوجنا، على الرغم من معارضة الأهل، عشنا في بيت متواضع، ضحّيت لأجله، ضحّيت كثيراً، تبيَّن لي بعد ذلك أنَّ له ثلةً من الأصدقاء، يسهر معهم كلَّ ليلة خارج البيت، رضيت بذلك، صبرت، ولكنْ، بدأ الأمر يتفاقم، أخذ يرجع إلى البيت مع الفجر

مخموراً، ثم أخذ يبيع بعض أثاث البيت، ثم اقترح دعوة أصدقائه إلى المنْزل، عارضته، فاقترح دعوة واحد فقط، وقبلت.

تنفث دخان سيكارتها، تطرق، تتكلم بهدوء، وهي مطرقة:

– مديري الذي كان يضايقني في المديرية، أخذ يسهر كلَّ ليلةٍ في بيتي، وعليَّ أن أعِدَّ له المائدة، بل عليَّ أن أقدِّم له الخمر، ورضيت، ثم أخذ يدعوني إلى مشاركتهما في المائدة، رفضت، بدأ المدير يتودَّد إليّ، أحضر لي ذات ليلة ثوباً هدية، ودعاني إلى ارتدائه والخروج معاً إلى سهرة، رفضت، من المؤسف أنَّ زوجي، أو بالأحرى، مَنْ كان زوجاً لي، أخذ يحاول إقناعي. "أنت لا تعرفين يا وداد، سنودع الفقر، غداً يعيِّنك المدير سكرتيرةً خاصة، أو يكلفك بأعمالٍ إضافية، أو يرسلني في مهمة"، هكذا كان يحاول إقناعي، وفي الحال تركت المنْزل، ولم أعد إليه، ولا إلى المديرية.

– أنت رائعة يا وداد.

ترفع رأسها والدموع جامدة في عينيها، تتكلم:

– ولكنْ، للأسف لست كذلك، على الأقل، في عيون الناس، الكل ينظر إليَّ على أنَّني مطلَّقة، ومنطلقة، ولا أحد بعد ذلك يعرف شيئاً عن السبب الحقيقي للطلاق، لا أمِّي ولا أبي، حتى خالي الذي تابع في المحكمة قضية الطلاق، لَم يعرف الحقيقة، إلا بعد انتهاء القضية، جُنَّ جنونه، أراد إثارتها، ولكنَّني آثرت الهدوء.

وتصمت هنيهة، ثم تضيف:

– قبلت كلَّ الاتهامات والأقاويل، تخلَّيْتُ عن كلِّ شيء إلا كرامتي، وحصلت على الطلاق ناشزة.

– الآن فهمت كلَّ شيء.

– لذلك أرجو ألا تتدخل في موضوع إسماعيل، أخشى أن ينتقم منك المدير، فلا يوافق على انفكاكِكَ من العمل.

– لا تقلقي، إسماعيل صديقي، وأنا سأتصرف بطريقتي الخاصة، وعلى كلٍّ حال، لا تستَبِقي الحوادث، دعي الأمور تجري في أعنتها.

تنهض، وهي تطفئ سيكارتها، وتتكلم:

– الآن تفضل، المائدة في انتظارنا، أعددتها قبل خروجي.

ويرنُّ جرس الهاتف، فتتجه إلى الهاتف، وهي تهمس:

– معذرة، أستاذ رياض.

ترفع السماعة، تتكلم، وهي ملتفتة إلي:

– أهلا.. أهلاً رجاء.. نعم، أنا هنا في بيت أختي.. لَم أذهب إلى البيت، لَم أتناول الغداء، من الوظيفة إلى الجامعة... نعم، حضرت محاضرات الدكتور زهدي والدكتور علاء... لا، للأسف، أنت تعرفين، أنا لا أكتب المحاضرات، أكتفي بسماعها... يمكنني أن أستعير مذكرة سميرة... أعرف، هي لا تعير مذكراتها لأحد، ولكن سأستعيرها لأجلك.... أنا الآن، وحدي ولست وحدي...

وتضحك، تستغرق في الضحك، تتابع كلامها، وهي ملتفتة إليَّ:

– لا ليس لغزاً، أنا مع عشيق، صدِّقي أو لا تصدقي،... أصفه لك؟... لا بأس، جهم، طويل القامة، كبير الهامة، عريض المنكبين، يرمقني الآن بنظرة كاسرة كالنسر... لا، لم يأتِ على جواد أبيض، جاء في سيارة أجرة صفراء... آه، العمر، ليس مشكلة، فوق الخمسين بقليل.. لا، ليس أبي، يشبهه، حقاً، يشبهه جداً، ولكن ليس هو.. على كلٍّ حال، المثل يقول: كلُّ فتاةٍ بأبيها معجبة، لا، لا تمرِّي بي أرجوك، أنا متعبة... صدِّقيني لا إفطار ولا غداء، فقط، فقط سكائر وقهوة، سأتناول العشاء الآن.... إلى اللقاء، إلى اللقاء.

وتضع سماعة الهاتف، ترجع إليَّ قائلة:

– معذرة أستاذ رياض، الحقيقة فوجئت بالهاتف، هي زميلةٌ في الجامعة، شعرت كأنَّها اقتحمت علينا جلستنا، سألَتْنِي إن كنت وحدي،

كانت عازمةً على المرور بي مع خطيبها، لَم أتمكن من الكذب، أرجو أن تعذرني، طبعي ميّال إلى المرح دائماً، الزميلات يعرفن ذلك.

– لا ضرورة للاعتذار يا وداد، ولا للتفسير، كلُّ شيء واضح، وكما قلت أنت: كلُّ فتاة بأبيها معجبة، وليس غريباً أن يكون الإعجاب إلى درجة العشق.

تستلُّ سيكارة، تشعلها، تتخذ موضعاً في مقعد مقابل، وتتكلم:

– صدقني يا أستاذ رياض، مقدار الشبه بينك وبين والدي كبير جداً، ولَم أكتشف هذا من قبل.

– هذا طبيعي يا وداد، يتشابه دائماً الأطفال الصغار، كما يتشابه العجائز الكبار، الشباب وحدهم يتميَّز بعضهم من بعض.

– لا أعرف لِماذا تصف نفسك دائماً بالكِبَر؟

– التقدُّم في العمر، يا وداد، أمرٌ طبيعي، سواء أقررنا أم أنكرنا.

– هذا الكلام نفسه يقوله لي والدي، أيضاً.

– بالمناسبة، لم تخبريني عن عمل والدك؟

– آه، والدي بائع خيوط في سوق الخيطان، وراء الجامع الأموي، أنت تعرف ذلك السوق من غير شكّ.

– أجل، ولكنَّه في الحقيقة بعيد عن منْزلكم؟

– كنا نسكن بجوار الجامع الأموي، في دار واسعة، لها فناء فسيح، مثل دار جدك التي حدثتني عنها، جدتي ملأت الفناء بأصص الفلِّ والورد والقرنفل وعرائش الياسمين، مئذنة الجامع كانت تُمِدُّنا بظلالها الآمنة، ومن حولنا كلُّ الأسواق القديمة، ودكان والدي قريبة.

– ولماذا تركتم تلك الدار الجميلة؟

– والدي اضطُرَّ إلى بيعها، وشراء دار صغيرةٍ في شارع الإذاعة، ليوفِّر بعض المال، يغطي به نفقات دراسة أخي في إسبانية، أخي "كريم" يدرس الطبَّ في إسبانية.

– ومتى تم ذلك؟

– منذ حوالي سبع سنين، كنت في السنة الأولى من المرحلة الثانوية.

– ولكن في تلك الفترة كانت تجارة الخيوط مزدهرة؟

– والدي ليس تاجر خيوط، ويرفض العمل في التجارة، يراها نَهباً أو مقامرة، هو بائع عادي، دكانه صغيرة، وهو مصمم على أن نتابع جميعاً دراستنا، أختي "عهد" مدرِّسة فيزياء، أخي "حسين" يحضِّر للشهادة الثانوية.

– هو الذي ساعدك على ترتيب طاولات المكتب؟

– نعم، هو. وأنا، كما تعرف، في السنة الرابعة بكلية الحقوق، أخي "كريم" الآن يتخصَّص في جراحة الأعصاب، والدي لم يتم تعليمه الابتدائي، وهو مصمم على تعليمنا جميعاً.

– الحقيقة، موقع منْزلكم رائع جداً، يا وداد، ما أزال أذكر ليلة أمس، حين أوصلتك إلى المنْزل، وأنا في السيارة، وهي تعبر بي شارع الإذاعة، أطللت على المدينة السابحة في بحيرة الأضواء، كم المنظر سارٌّ وبهيج، ولا سيَّما عندما يكتمل القمر، هل لِمنْزلكم شرفة تطل على المدينة؟

– لا، منْزلنا شقة في الدور الثاني من البناء الذي نزلتُ من السيارة أمامه، الشقة تطلُّ على الجهة الأخرى، ولا تطلُّ على المدينة، وهي شقةٌ صغيرةٌ بالقياس إلى دارنا بجوار الجامع الأموي.

وتنفث دخان سيكارتها، وتتكلم:

– في الحقيقة، كلُّنا نَحِنُّ إلى دارنا القديمة، مع أنَّ والدي وفَّر لشقتنا كلَّ وسائل الراحةَ وأدوات الحضارة. في العام الماضي اشترى لنا الحاسوب، وأخذنا نتدرب على برمجته، وملأ المطبخ بكلِّ الأدوات الحديثة لتريح أمي، وهو بعد ذلك يرفض أخذ أيِّ قرشٍ من راتبي، يقول لي: "أنفقيه كلَّه، ولا تدَّخري شيئاً، عيشي حياتك".

وتصمت هنيهة، ثم تسأل:

– ولكنْ، أستاذ رياض، لم تحدِّثني أنتَ عن دارك، أين تسكن؟

– أسكن وراء القلعة، في ساحة الملح، بجوار جامع الأطروش.

– في دار جدِّك نفسها، التي حدثتني عنها؟

– لا، في دار أخرى، قريبة منها، ولكنَّها أصغر، وتقع في زقاق فرعي.

– ما أورع تلك الحارات والأزقة الشعبية القديمة! زرتها مرةً بصحبة أمي، لا أذكر المناسبة، وما تزال عالقة بذهني صورة الأزقة الضيقة، وهي مرصوفة ببلاطٍ أبيض نظيف، بيوتها متجاورة متلاصقة، جدرانها تَمُدُّ ظلالاً رطبةً ناعمة، كنت أشعر وأنا أدخلها بالهدوء والطمأنينة.

– لا أظنُّك يا وداد تعرفين الحافلة الكهربائية؟!

– آه، الترومواي، لا أعرفها، والدتي تحدِّثني عنها، أنا لا أعرفها.

– كم لها من ذكريات جميلة، وهي تسير على سكة حديدية، وتتألف من عربتين، وتعمل بالكهرباء، تستمدُّها من شريطٍ ممدودٍ فوق خطِّ سيرها، نوافذها واسعة عريضة، مقاعدها مزدوجة متقابلة، خطُّ سيرها طويلٌ طويل، كانت تنطلق من وراء القلعة، ثم تَمُرُّ بساحة الملح، ثم بِجُبِّ القُبَّة، ثم بساحة باب الحديد، ثم تَمُرُّ أمام باب النصر، وتعبر جادَّة الخندق، لتمرَّ أمام مخفر باب الفرج، ثم تمر بشارع القوّتلي، أمام مديريَّتنا، وتجتاز ساحة سعد الله الجابري، أمام البريد، وينتهي خطُّها في حي الجميلية، كم كانت الرحلة فيها ممتعة.

وأصمت هنيهة، ثم أضيف:

– أنت، يا وداد، رجعتِ بي إلى ذكريات الطفولة، يوم كنّا نركض إثر الحافلة، نتسلقها، أو نضع في سكتها المسامير حتى تدوسها فتصبح نصالاً، أو نضع المفرقعات ولا سيَّما أيام الأعياد. أيامٌ

مضت ولكنها ما تزال تنبض، لعلَّها أعزُّ ما يملك الإنسان. بقيت عشر سنوات أنتقل بها من بيتي إلى الوظيفة، إلى أن أُلغيت، منذ أكثر من عشرين عاماً ألغيت، في عام ١٩٧٠ على ما أذكر.

– هذا تاريخ ميلادي.

– هو سرٌّ جميل، كان يجب ألا تبوحي به.

– السرُّ الكبير بُحْتُ لك به، لَم تبق أسرار.

وتطفئ سيكارتها، تنهض، تتكلم:

– آه، اعذرني أستاذ رياض، ذُهلت عن نفسي وعنك، نسيت الطعام، المائدة تنتظر، أرجوك، تفضل إلى المائدة.

– اعذريني ياوداد.

– هذه هي المرة الثانية التي ترفض فيها تناول الطعام معي.

– ليس رفضاً، بل هو اعتذار، سأشرب معك القهوة فقط، وأرجو عدم تأخيرها.

– هل أنت مصمم؟

– أجل.

وتمضي نحو المطبخ، وهي تغصُّ بالدموع.

أقف، أتردد. الوحيدة في الحقل صامتة، حزينة، مطرقة، وغلال بعيدة تملأ الأفق، والجوُّ من حولها أكدر كئيب. وأرفع صوتي سائلاً:

– وداد، اللوحة التي في غرفة الضيوف، هل هي من اختيار أختك؟

ويأتيني صوتها من المطبخ:

– لا، هي من اختياري أنا، هي هديتي لأختي، هل يعجبك ذوقي؟

– من غير شكّ، يعجبني ذوقك دائماً.

وأمضي إلى المطبخ. تحسُّ بي قادماً، وهي أمام الموقد، فتمسح دموعها. مائدةٌ صغيرة، كرسيان متقابلان، شمعتان اثنتان، لحمٌ ودجاجٌ

وحساءٌ ومقبِّلاتٌ وفواكه وحلويات، أصنافٌ كثيرة، موزعةٌ بهدوء ولُطْف، وفي الوسط زهرية، فيها قرنفلتان، حمراء وبيضاء. بالإمكان الجلوس إلى هذه المائدة ثلاث ساعات، هي للحديث والنظر ومتعة اللقاء، قبل أن تكون للأكل. أقف مذهولاً، وداد تُعِدُّ القهوة بصمت، أعلق:

– كم هو رائع أن تبقى هذه المائدة هكذا أبداً، ذكرى خالدة، طعامها لا ينفد، شمعها لا يحترق، صحونها لا تفرغ، وردها لا يذبل، رونقها لا ينضب.

– وكم هو رائع أيضاً أن نتحوَّل نحن إلى تماثيلَ من حجرٍ أو خشبٍ أو شمع، ما رأيك؟

هكذا تردُّ، فأجيبها مازحاً:

– جميل جداً، أصبحت تفكرين مثلما أفكر.

– طبعاً، تلميذتك.

– بل سيدتي.

– أنت قادر دائماً على المجاملة.

و تلتفت، وهي ما تزال تُعِدُّ القهوة، لتسأل:

– ما زلتَ مصمماً على رفض دعوتي إلى العشاء، والطعامُ أمامَك؟

– أرجو قبول اعتذاري، وصدِّقيني، لن أتناول بعد قهوتك في البيت أيَّ شيء.

– ألا يمكن أن تأخذ تفاحة واحدة؟

أقعد إلى المائدة، أنقر على طرفها بأصابعي، أداعب ملاءتها، وأردّ:

– تفاحة واحدة، كانت سبب نزول آدم وحواء، ونحن بعدهما، من جنَّة الخلد إلى الأرض.

وأغمس إصبعي في الملح، ثم ألعقها، وأتكلَّم:

– هل تعرفين قصة بيت الملح؟

- لا.

- هل تودين سماعها؟

- بكلِّ سرور.

وتطفئ الموقد، تترك القهوة، تقعد قبالتي إلى المائدة، تسند ساعديها إلى طرفها، تثبِّت ناظريها في عيني، وتبتسم، ثم تهمس:

- نعم، تفضل يا جدي.

- هذه هي الحقيقة، منذ قليل كنت أشبه والدك، والآن أنا جدك، العمر معك يتقدَّم سريعاً.

- كان من المتوقع أن يرجع بك إلى الشباب.

- عقارب الساعة لا ترجع إلى الوراء.

- على كلِّ حال، أرجو ألا تنسى الحكاية.

- لن أنساها، هذه هي: كان لأحد الرجال ولد وحيد، تعهَّده بِحُسْن التربية، وشجَّعه على اتِّخاذ الأصدقاء، ليملأ بهم وحدته، ويعوِّض بِهم عن الإخوة. وذات يوم سأله عن أصدقائه، فأكَّد له أنَّهم جميعاً أوفياء، فأخبره أنَّه يودُّ اختبار وفائهم، فدعاهم إلى وليمة، وجعل عند مدخل الدار غرفةً مملوءةً بالملح، وأخذ الأب عند خروج أصدقاء ولده من الوليمة، يسألهم واحداً واحداً أن يتناولوا من الملح بمقدار إخلاصهم لولده، وكان هذا يؤكِّد أنَّه سيأكل قنطاراً، وآخر يَعِدُ بتناول قناطير، وثالث يقسم على التهام البيت كلِّه، ولكنهم كانوا جميعاً لا يقدرون على تناول ما يملأ ملعقةً أو ملعقتين، ويخرجون خائبين. وأخيراً، تقدَّم واحدٌ منهم، فسأله الوالد السؤال نفسه، فغمس إصبعه في الملح، ولعقها، وقال: من لا يستطيع الإخلاص لذرَّة من ملح، لا يستطيع الإخلاص لقنطار.

وتعلِّق وداد:

- شكراً أستاذ رياض، أنت حكيت لي حكاية سمعتَها عن جدَّتك من غير شك، ولكن أنا سأروي لك رواية عشتها أنا بنفسي.

وترسل زفرة طويلة، تطرق، تصمت هنيهة، ثم ترفع رأسها، وتتكلَّم:

– منذ ثلاثة أشهر، أو أربعة، في ليلة رأس السنة، دعاني أحد الشباب إلى سهرة، شابٌّ وسيم، في الثلاثين، أشقر، موفور الصحة، ليس بإمكان أي فتاة أن تتردَّد في قبول دعوته، ومضينا معاً، أطير بجناح البهجة، أحسُّ كأنِّي فراشة أحلِّق، أحلم بسهرةٍ ممتعة، نقعد معاً إلى المائدة ساعات، يحدثني، وأحدثه، ولكنْ، دخلنا مطعماً، لا أعرف اسمه، ولا أذكر في أيِّ حيٍّ يقع، وإذا النادل يعتذر، الموائد كلُّها محجوزة، والتفتُّ إليه، وإذا هو يتلعثم، وننْزل على الدرج خائبين، كنت قبل يومين قد نبّهته إلى ضرورة الحجز، ووعدني، وفي الشارع، سألته ماذا سنفعل؟ ارتبك، حارت خطاه، تردّد، وعلى الفور أشرت إلى سيارة أجرة، طلبت من السائق أن يوصلنا إلى نادي الاتحاد، وقبل أن يفوه النادل بكلمة، وضعت في يده مئة ليرة، وأنا أقول له: "نريد مائدة ممتازة"، وقادنا إلى المائدة، وقعدنا، وأنا أقول له: "أنت الآن في ضيافتي"، حار، تلعثم، تردَّد، ثم استسلم، وأخذ يتحدَّث، سُررت لِمرحه ودعاباته ونوادره، ولكنْ، اكتشفتُ فجأةً أنَّها جميعاً تدور حول الطعام، روى لي أشياءَ كثيرةً ما عدت أذكرها، عن الطفيليين وظرفاء الموائد.

تصمت، تضحك بمرارة، كأنَّها تودُّ لو تبكي، ثم تتكلم:

– ثم جاء الطعام، فسكت عن الكلام، وأخذ ينفِّذ حقيقةً ما رواه لي من نوادر، وبدأت الصحون تفرغ، يؤسفني أن أقول: إنَّني طلبت له ثلاثة أطباق من اللحم، طبقاً إثر طبق، أحسست أنَّني أمام ضفدع تنتفخ شيئاً فشيئاً، لَمْ أشعر بالبخل، بل شعرت بالسُّخف. كان في حقيبة يدي ما يكفي لإشباع أربعة من أمثاله، ولكنْ أحسست بالتقزُّز، ثم نطق بعد ذلك، فتكلم: "صَدَقَ من قال: أقرب طريقٍ إلى قلب الرجل معدته"، فرددت عليه: "وصدق من قال: أقرب طريقٍ إلى قلب المرأة

أذنها"، وعندئذ انقلب ضاحكاً، وقال: إذن، اتفقنا، أنت ملأت معدتي بأطايب الطعام، وأنا ملأت أذنك بأطيب الكلام، ثم مال عليَّ وهو يتجشأ، وقال: ولكن لم أشبع بعد يا وداد، بنفسي التهام صحون المطعم كلِّها، ثم التهامك أنت أيضاً. أحسست كأنِّي تحوَّلت إلى بعوضة، تذكرت قول أبي: "الطعام يا ابنتي عورة"، ووجدتني أسأله: "لنفترض على سبيل الاحتمال، أنَّك دُعيت إلى وليمة، وملأت بطنك الملءَ كلَّه، ثم عدت إلى البيت، فوجدت زوجتك قد أعدَّت لك وجبةً رائعة، فماذا تفعل؟" وعلى الفور أجاب: "أذهب إلى الحمام، أتقيأ، ثم ألتهم الطعام من جديد". وصمت، ثم أضاف، وهو يرسل زفرة حزن: "ولكن، صدِّقيني، طوال عشر سنوات لَم تُعِدَّ لي زوجتي مائدة من هذا النوع، لو أعدَّتْ لي مائدةً صغيرة ما كنت سهرت خارج البيت، ولا ملأت بطني بالولائم". واصطكت ركبتاي، ارتعشت أناملي، وسرت في جسمي قشعريرة، أشعلت سيكارتي، وقلت له: آسفة أستاذ خالد، لم أكن أعلم أنَّك متزوج، اعذرني، لو كنت أعلم أنك متزوج لَما كنت قبلت دعوتك إلى سهرة رأس السنة. قهقه عالياً، ثم أجاب: "لا تهتمي يا وداد، هذه حياتي الخاصة، وأنا حرٌّ بها"، قلت له: "لا أتفق معك، وعلى كل حال، لا أقبل أن أكون منافسةً لزوجتك، ولا موضعاً لخيانتها"، وذهل، قال: "أنا لا أخون زوجتي، أنا أتعشى وأسهر معك". رددت عليه: "أنا أعتبر هذه خيانة، زوجتك أولى مني بأن تسهر معها".

وتنهض، تحمل القهوة، ترمي بها في الحوض، وهي تتكلم:

– أنا آسفة، أستاذ رياض، هذه القهوة بردت.

وتتجه إلى الموقد، وهي تتكلم:

– كم أنا سخيفة ومبتذلة؟

– لا يا وداد، مرة أخرى، أقول لك: أنت رائعة، ولكن خطأك أنَّك لَم تعرفي حقيقة خالد قبل السهر معه.

تلتفت إليَّ مدهوشة، وتسأل:

– وكيف عرفت أنه خالد؟

– أنت ذكرت اسمه منذ قليل.

تطفئ الموقد، تلتفت إليّ، تتكلم:

– إذن، اسمح لي أن أتِمَّ بقية الحديث، قال لي: "هذا ليس عشاء خيانة يا وداد، هو عشاء عمل"، سألته ببلاهة: "وكيف نعُدُّه عشاء عمل؟ أين المدير أين الزملاء والزميلات؟" فأجاب: بصراحة، أنا دعوتك بصفتي رئيس لجنة المشتريات، وأنت المسؤولة في اللجنة عن عقود الشراء، يمكننا أن نتعاون، معرفتي واسعة بالتجار وأصحاب الشركات"، قاطعته قائلة: "إذن هو عشاء خيانة مزدوجة".

وتصمت، تشعل الموقد، تبدأ بإعداد القهوة، وتتكلم:

– هذا هو عشائي مع خالد، ولا شكَّ في أنَّك سمعت عنه في المديرية.

– لا يمكن أن أنكر، سمعت عنه.

– لن أحرجك، أستاذ رياض، بالسؤال عما سمعت، أنا أعرف، خالد أخذ ينشر الأقاويل عني. على كلِّ حال، لَم يكن قبولي دعوته سراً، كنا في المكتب، هو رئيس لجنة المشتريات، وأنا موظفة في مكتبه، تودَّد إليّ، ثم دعاني إلى سهرة رأس السنة، وقبل السهرة بيومين، وعند الانصراف، وأمام الزملاء والزميلات في المكتب، سألته: " في أيِّ مطعم حجزت لدعوتي أستاذ خالد؟"، سألته أمام الجميع، تلعثم، قال: "لَم أحجز بعد". أكدت ضرورة الحجز، وقلت له: "أخشى ألا نجد مائدة"، وحصل ما حصل، هكذا أنا دائما، أستاذ رياض، صريحة.

– من الضروري، أن أخبرك الآن، يا وداد، أنَّ خالد هو ابن أخت إسماعيل.

تلتفت إليّ ذاهلة، وهي تصيح:

– يا للهول، إذن أنا أسيرة شبكة.

و أعلق:

– لا، لا تقلقي يا وداد، وأرجو أن تنتبهي الآن إلى القهوة.

وأصمت هنيهة، ثم أضيف:

– صدِّقيني يا وداد، إسماعيل من معدن نقي، هو صديقي منذ ثلاثين سنة تقريباً، ولكن لا أعرف ما الذي غيَّره في السنوات القليلة الأخيرة.

وتلتفت إليّ، لتسأل:

– أستاذ رياض، القهوة أصبحت جاهزة، اعذرني لهذا التأخير، هل تودُّ شربها في غرفة الجلوس؟

وأجيب:

– بالطبع.

وأتقدَّمها إلى غرفة الجلوس، أتَّخذ موضعي في المكان نفسه الذي جلست فيه ليلة أمس، وداد تدخل في إثري، تضع القهوة على منضدة صغيرة أمامي، ثم تهمس:

– اسمح لي بدقيقة واحدة فقط.

وأرد:

– لا ضرورة لتبديل ثوبك يا وداد، هو أنيق جداً، ولائق بك.

– ولكنَّه ثوب لخارج المنزل، خرجت به لاستقبالك في المحطة، وليس مناسباً للسهرة والقعود على الأرض.

وتصمت هنيهة، ثم تضيف:

– ويكفي أني حدثتك عن خالد وأنا أرتدي هذا الثوب، يجب أن أغيِّره، عندما أغيره أشعر أني خرجت من حالة إلى حالة.

وتمضي إلى الداخل، وأنظر إلى ساعة يدي، وإذا هي حوالي الحادية عشرة، غير معقول، أشعر كأنِّي عشت عمراً، ولم تكد تمضي ساعة. وتغمرني دفقة عطر، هو عطر وداد المميز، وتدخل في ثوب

أسود رقيق، ينْزلق على قوامها اللدن، وينساب ليبلغ الأرض، سوار الكوبرا يلتفُّ حول معصمها. وتقعد قبالتي على الأرض، وتبدأ بصبِّ القهوة، وهي تتكلم:

– اعذرني، أستاذ رياض، لقعودي على الأرض، أحبُّ اللصوق بها.

– تلك هي طباع الكوبرا.

تناولني فنجان القهوة، وهي تسأل:

– وهل تَعُدُّ تبديلي الثوب من طباع الكوبرا، أيضاً؟

– لا شكَّ في ذلك، فهي تبدِّل ثوبها ليس في كلِّ عام مرة، بل تبدِّله مرات كثيرة، تبدِّله مع كل فصل، تبدِّله كلَّما خرجت من أرضٍ إلى أرض مختلف لونها، بل تبدِّله إذا ما غضبت.

– هل حقيقة علمية ما تقوله، يا أستاذ رياض؟

– لا أعرف، هذا ما سمعته.

– أياً ما كان، فهو يسرني، وأحس كأنه يعنيني.

– اخترت لك النحلة، تحلِّق في الفضاء، تسبح في النور، تلثم الزهر، تصنع العسل، واخترت لنفسك.....

– لا بأس، بعض الاختلاف ينفع.

– لا، أنتِ نحلة، ولكنك لا تعرفين حقيقة نفسك، بل تهربين منها إلى نقيضها.

ترشف قهوتها، تشعل سيكارتها، ثم تتكلم سائلة:

– هل تسمح لي بوضع شريط في المسجِّل؟

– لا بأس.

وتنهض، تميس في ثوبها الرقيق، تستلُّ شريطاً، تضعه في المسجل، وترجع، تقعد أمامي. النغم يتسلل كأبخرة تتصاعد من بحيرات صافية نقية، لتنعقد سحابات سخية، تنهلُّ رذاذاً تتألق فيه ألوان الطيف، ثم تنساب أنهراً دفّاقة، تروي البقاع وتجود على المحيطات. النغم يثير

في الأنامل كلَّ الرعشات التي سرت في عروق الأجداد، يحلِّق في فضاء لا حدود له، متجاوزاً الآماد والأبعاد، ليعانق المطلق. النغم يتوحَّد مع نكهة الـ"كنت"، وعبق القهوة، ويحل الجميع في أفلاك شذاها " الوادي" المميز، وفي هذا المدِّ الروحي الساطع تتألق عيناها، وتشرق بسمتها النقية.

ويشدو صباح فخري بالنغم المعتَّق:

حبيبي على الدنيا إذا غبتَ وحشةٌ ... فيا قمراً قلْ لي : متى أنت طالعُ؟
لقد فنيتْ روحي عليكَ صبابةً ... فما أنت يا روحي العزيزة صانعُ؟
وغيرك إنْ وافى فما أنا ناظر ... إليه، وإن نادى فما أنا سامعُ
وإن تتفضل يارسولي فقل له: ... " محبك في ضيق وعفوك واسع "

وداد ترفع وجهها إليَّ وتسأل:

– أستاذ رياض، هل سفرك حقيقة؟

– هو واقع، لا شكَّ فيه، ولا بُدَّ منه.

– ولماذا؟

– ليس سفري، يا وداد، نزهةً، ولا ترفاً، وليس من أجلي، أنا تجاوزت الخمسين، وما أزال أسكن في دار مستأجرة، ولا أفكر في شراء قصر ولا سيارة، إنَّما أفكر في ابني عماد وابنتي هدى، حدثتك من قبل، ابني عماد تخرج في كلية الهندسة، منذ سنتين، ولا بُدَّ من مساعدته على افتتاح مكتب خاصّ، وابنتي هدى في السنة الثانية في كلية الطب، ولا بُدَّ بعد ذلك من التخصُّص، الطريق ما تزال طويلة.

أرشف آخر قطرة في فنجاني، ثم أضيف:

– مصاريف البيت، يا وداد، والجامعة والحياة، لا يفي بها الراتب، من المؤسف أن أخبرك، أنني منذ سنتين أستدين، من هنا وهناك، الديون المتراكمة عليَّ لا أستطيع سدادها في خمس سنوات، هذا إنْ لَم أستدن غيرها، أنت وحدك من أبوح له، أحاول دائماً ألا

تحسَّ زوجتي أو ابني أو ابنتي بشيء من النقص أو الحاجة أو التقصير، أسعى إلى تلبية كلِّ ما يحتاجون، أظهر أمامهم بمظهر المتماسك، ولكن أحسُّ بالفراغ من الداخل، أشعر بين لحظة وأخرى أني على وشك الانهيار، كأنِّي مجوَّف من الداخل، محشوٌّ بالقشِّ والغبار، مثلي مثل فزاعة ينخرها الغربان والجراد.

وداد تهمس وهي تطفئ بقية سيكارتها:

– بل أنت رائع، يا أستاذ رياض.

أنهض، وأنا أقول لها:

– ولكن للأسف، ليس كذلك في عيون أكثر الناس.

تنهض، تقف قبالتي، تهتف:

– الناس، الناس، دائماً ...

أقاطعها:

– اسمعي يا وداد، لن ننقم، ولن نحقد، ولن نصاب بالعقد، يجب أن نعيش، وسوف نعيش.

– إذا كنا سنعيش حقاً، فعلينا أن نهرب إلى قمة الجبل.

وأمضي نحو غرفة الضيوف، أحمل حقيبتي، أقف قبالتها وأقول:

– لا يا وداد، سنعيش بين الناس، ومعهم، سنعيش لهم، سنعلمهم الحب، سنجعلهم جميعاً أصدقاء.

– كلام جميل، لا يقوله إلا الأنبياء أو الشعراء..... والمسافرون.

أمام الباب التفت إليها، أعلق:

– وهم إنَّما يعبِّرون عن رغبة وداد، ويجاهدون لتحقيقها.

تصمت، تطرق، ترفع رأسها، وتسأل:

– ولكن، أستاذ رياض، لَم تخبرني حتى الآن عن موعد سفرك؟

– ستقلع بي الطائرة من دمشق عند منتصف الليل من يوم الجمعة، لأكون صباح السبت في اليمن.

تغطِّي وجهها بيديها، تنشج، تنهنه. أرفع وجهها إليّ، أمسح دموعها، وأهمس:

– **وداد، أرجو أن أمضي وأنا مطمئن عليك.**

تكفكف دموعها، تبتسم، تسأل:

– **وموافقة المدير على الانفكاك؟**

– **غداً أقابله، وأطلب منه الموافقة.**

تتكلم، وهي ما تزال تنهنه:

– **أستاذ رياض، إذا لَم يوافق، فأنا سأدخل عليه، سأجابهه بنفسي.**

– **أشكرك، إلى اللقاء في يوم غد.**

وأمضي وهي تشير إليَّ بيدها مودعة.

- ١٢ -

أصل إلى المكتب كعادتي مبكِّراً، وأنا أؤمِّل أن تأتي وداد مبكرةً أيضاً، الدقائق القليلة التي نمضيها معاً في المكتب قبيل وصول الزميلات لا أمتعَ منها ولا أجمل.

طوال الطريق إلى المديرية وأنا أفكر، كيف سأقابل المدير؟ كيف سأقنعه بالموافقة على انفكاكي من العمل؟ هو في البداية اشترط وجود البديل، ولكن نتيجة لإلحاحي وعد بالموافقة حال وصول عقد العمل، وعده لم يكن صريحاً، يمكنه أن يتراجع، في أسوأ الأحوال أضعه أمام الأمر الواقع، أغادر من غير أخذ موافقته، لأني حاصلٌ في الأساس على موافقة السيد الوزير، ولكن لا أرتاح – بعد هذا العمر – إلى مثل ذلك الموقف، وفي الأحوال كلِّها، لا بُدَّ من تسوية وضع وداد قبل السفر، يبقى إسماعيل صديقاً لي، أستطيع مناشدته عهد الصداقة لكي يكفَّ عن إزعاجها، هو في الأصل إنسان طيب، أمَّا المدير فلا أعرف كيف يمكنني معالجة موضوع وداد معه.

وتتوافد الزميلات. الثامنة والربع، دفتر الدوام رُفع الآن، وداد لَم تأتِ، ليس من عادتها التأخر، تتساءل الزميلات عنها، القلق يظهر عليهنّ، العم محمود يوزع القهوة، اضطر إلى مجاراة الزميلات، القهوة في غياب وداد لا معنى لها. أحدِّث الزميلات عن سفري إلى العاصمة، وتوقيعي في السفارة اليمنية عقد العمل، وإقلاع الطائرة بي إلى اليمن عند منتصف الليل من يوم الجمعة. أحاول شغل نفسي بالحديث.

– من حقِّك، يا أستاذ رياض، أن يكون هذا اليوم إجازة.

هكذا تعلِّق دلال، وأرد:

– في الحقيقة جئت لوداع الزملاء والزميلات، ولأخذ موافقة السيد المدير على الانفكاك من العمل.

سناء تسأل:

– ما العمل في اليمن؟ أستاذ رياض؟

– لا أعرف يا سناء، مدير مكتب في إحدى الشركات الرسمية، رئيس ديوان مثلاً، رئيس قسم الآلة الكاتبة، ليس مشكلة، العمل هو العمل.

منى تتكلم:

– بودِّنا أن نقيم لك حفلة وداع.

– أشكرك يا منى، في الحقيقة سفري مفاجئ، وليس في الوقت متسع، أنا أقدِّر مشاعر الجميع.

أحسَّ بالاختناق، كأنَّ أخطبوطاً يلتف على عنقي. أنظر إلى ساعة يدي، أتصل بالسكرتيرة، الساعة التاسعة، وداد لَم تأت، المدير لَم يأت. أذكر المقصف والرعود والنادل وأضواء الموائد الخافتة.

أغادر المديرية، أشير إلى سيارة أجرة، وأطلب من السائق أن يسرع بي إلى حيٍّ متنزه السبيل، أقرع الباب على وداد، أقرع عدة مرات، أنادي، ويُفتح الباب، وإذا وداد شاحبة، مستندة إلى الجدار، تكاد تقع، أساعدها على المضيِّ إلى الداخل، ألتفت إلى الهاتف، أرفع السماعة، في المنفضة بقايا سكائر كثيرة، وثلاث علب "كنت" فارغة، بأي طبيب سأتصل؟ وأسرع إلى المطبخ. المائدة كما هي، لَم تناول أيَّ لقمة، في حوض المَجْلى فناجين كثيرة. أحضر من الثلاجة قطعة ليمون، وأرجع إلى وداد. تقوى قليلاً، أساعدها على النهوض، وأمضي بها إلى مستشفى الكلمة.

خطئي أني تركتها ليلة أمس في الدار وحدها، كان عليَّ أن أحثَّها على العودة إلى بيت أهلها.

- ١٣ -

بعد أقلَّ من ساعة، أرجع إلى المديرية، أدخل على الزميلات، أسأل:

- هل سأل عني أحد؟

منى ترد:

- لا.

وأصمت، أنظر إلى طاولة وداد، منى تعلق:

- وداد لَم تأت، أنا قلقة؟

وتضيف الزميلات:

- نرجو ألا يكون غيابها لمرض.

- لو عرفنا هاتف منْزلها لاتصلنا بها، للاطمئنان.

- يا له من يوم كئيب، وداد غائبة، والأستاذ رياض سيغادرنا.

- الحقيقة، ألفنا وجود وداد.

هكذا تتكلم الزميلات، وأنا صامت.

ألحَّتْ عليَّ بالعودة إلى المديرية لأخذ موافقة المدير، ليتتي أحدث الزميلات عنها. شحوبها الهادئ زادها لطفاً، وهي تحاول أن تبتسم، تغالب تعبها، لتطرد عني القلق، كم هي وادعة، وكم...

ويرن جرس الهاتف، منى تعلق:

- لعلها وداد.

وأرفع السماعة

- أهلاً أستاذ إسماعيل.

- أدعوك إلى مكتبي، لنشرب معاً فنجان قهوة.

- أنا قادم حالاً.

وأضع السماعة وأنهض.

هذه المرة لا بُدَّ من مجابهته، وداد إذا لَم تخرج من المستشفى هذا اليوم فسوف أؤجل سفري، المدير سيوافق من غير شكّ، ولكن لا أعرف سرَّ تأخره.

وأدخل على إسماعيل، فيحييني بحرارة.

– أهلاً، أهلاً أستاذ رياض، هل تعرف؟ منذ انتقال وداد إلى مكتبك، وأنت لا تزورني.

– شكراً يا أستاذ إسماعيل، أعدُّ هذا دليلَ شوقك إلي، لأنه لَم يمض على انتقال وداد إلى مكتبي سوى أربعة أيام.

– لا بأس، ولكن لماذا لَم تنتظرني عند أم صالح؟

– انتظرناك إلى الثامنة والنصف.

– وصلت بعد خروجك أنت ووداد بدقيقتين.

ويصمت هنيهة، ثم يضيف:

– يبدو أنك ووداد كنتما مستعجلين.

– لا، أبداً، قعدنا عند أم صالح نحواً من ساعتين، من السادسة والنصف تقريباً إلى الثامنة والنصف، مع أنَّ زيارة التعزية ليس من الضروري أن تطول.

– على كل حال، أنا أهنِّئك يا أستاذ رياض، فأنت ما تزال تملك روح الشباب، على الرغم من تجاوزك الخمسين.

وأظل صامتاً، فيثرثر:

– أخبرني، أين سهرت مع وداد؟ رأيتكما تدخلان معاً في سيارة أجرة؟

ويصمت ثم يضيف:

– من منطلق الصداقة، أنصح لك أستاذ رياض، بعدم إقامة أيِّ نوعٍ من العلاقة مع وداد.

وأردّ:

– اسمع، يا أستاذ إسماعيل، وداد زميلة عمل، ومن غير اللائق ذكرها بأيِّ شيءٍ يسيء إليها.

– لا، وداد ليست زميلة عمل، لأنَّها في الأساس لا تصلح للعمل، اسأل عنها الزميلات السابقات في مديرية التصدير، لا تجيد العمل، وتتهرب منه، ولا تنجز في اليوم سوى كتابين أو ثلاثة.

ويصمت، ثم يضيف:

– هذا كله، عدا عشق المدير لها، وتطليقها زوجها لأجله.

– ولكن يا أستاذ إسماعيل، أنت أخبرتني من قبل أنَّها هي التي عشقت المدير.

– لا فرق، هو عشقها، هي عشقته.

– أستاذ إسماعيل، كنت أعتبرك الصديق الحميم في هذه المديرية.

– وما أزال، أنا حريص على سمعتك.

– ولكنك لم تكن تتكلم على الناس، بهذا الشكل؟

– هذا صحيح، لأنه لم يكن في المديرية أي موظفةٍ من نوع وداد.

– للأسف، يا أستاذ إسماعيل، معلوماتك عن وداد كلُّها غير صحيحة.

ويدخل الآذن، يحمل القهوة، أسأله عن المدير، فيجيب:

– دخل مكتبه منذ دقيقة واحدة.

ويسألني إسماعيل:

– هل عندك موعد معه؟

– لا، ولكن سأدخل عليه لأمرٍ ضروري.

– أرجو أن يكون...

أنهض، أقاطعه قائلاً:

– لـي عنـده طلبـان اثنـان، الأول سـأخبرك بـه الآن، والثـاني سأخبرك به بعد خروجي من مكتبه.

ينهض، يتقدم مني، يعلق:

– شغلت بالي.

– لا تقلق، الطلب الأول أن يأمرك بالكفِّ عن نشر معلوماتٍ غير صحيحة عن وداد، تنشرها لتسيء إليها، لصالح صديقه مدير مديرية التصدير، لأنَّها أبت أن تنصاع لنَزواته.

وأمضي نحو الباب، فيقف قبالتي سائلاً:

– من أخبرك؟

– أعرف كلَّ شيء عنك وعنها وعن مديرك ومديرها السابق.

وأهمُّ بالخروج فيستوقفني:

– أستاذ رياض، أرجوك، لا تقطع رزق عيالي.

أدهش، أنظر إليه، يُطْرِق، يصمت، يتكلم، وهو مطرق:

– أستاذ رياض، نحن أصدقاء العمر، ولكن أنت تعرف، حالك مثل حالي، الأولاد كبروا، المصروف زاد، الراتب لَم يعد يكفي، أنا مضطرٌ للتعاون مع المدير، أنت تعرف، ما من لجنة إلا أنا عضو فيها، أو رئيس لها، كلُّ عقدٍ خارجي أسافر في مهمةٍ لتوقيعه، إذا عرف المدير أني أصبحت مكشوفاً تخلَّى عنِّي.

ويرفع وجهه إليّ، ويضيف:

– أرجوك، لا تقطع رزق عيالي.

وأتركه وأمضي في البهو، متجهاً إلى مكتب المدير.

بعد أقلَّ من عشر دقائق، أخرج من مكتبه، أشكر السكرتيرة، أودِّعها، فتهنئني، وتبارك لي، أمرُّ بمكاتب الزملاء، أودِّعهم واحداً واحداً، أرجع إلى إسماعيل، أدخل عليه، فينهض مرحِّباً، أقول له:

– جئتك مودِّعاً، غداً الجمعة، وعند منتصف الليل، ستقلع بي الطائرة من دمشق، لأكون عند الفجر في اليمن.

ويسأل:

– في مهمة؟

أنظر إليه مليّاً، ثم أرد:

– لا، استقلت، سأباشر عملي هناك.

– فاجأتني أستاذ رياض، أهنئك من كل قلبي، تفضل، تفضل القهوة.

– آسف، قهوتك لا يمكن أن أشربها، كنت سأمضي من غير وداعك، ولكن...

– أستاذ رياض، نحن أصدقاء العمر، اطلب مني ما تشاء، طلباتك أوامر، أنا سأتابع هنا أمور استقالتك، لا تقلق، أعدك أن يكون تعويضك الوظيفي جاهزاً خلال شهر واحد، ولكن من سيقبضه في غيابك؟

– ابني عماد، لديه وكالة عامة، هو الذي سيقبض التعويض في غيابي.

– ستسافر وحدك؟

– أجل، ستلحق بي زوجتي بعد شهر، ريثما أهيِّئ السكن.

– ليتصل بي ابنك عماد بالهاتف، أنا على استعداد لخدمته بعيوني.

– أشكرك، يا أستاذ إسماعيل، هذه الأمور كلها لست قلقاً عليها، لأنني هيأت نفسي للسفر منذ أكثر من شهرين، هناك الأهمّ، وفي هذه المديرية، بالتحديد.

وأصمت، يطرق، يرفع رأسه، ويسأل:

– وداد؟

– نعم، وداد.

ينهض، يقترب مني، يضع يده على كتفي، يتكلم:

– أستاذ رياض، وداد في الحفظ والأمان والصون.

– لا أصدق؟

– أعدك بشرفي، وعد الصداقة والوفاء.

أضع يدي على كتفه، وأتكلم:

– أستاذ إسماعيل، واجبنا، ونحن في هذا العمر، أن نعطي، لا أن نأخذ، سعادتنا في تضميد الجراح، لا فتح جراح داخل الجراح.

– أستاذ رياض، كلامك صحيح، ولكن ماذا أقول لك، ونحن أصدقاء العمر، حياتي مدمرة، أنت تختلف عني، زوجتك تحبك، أولادك ناجحون، المدير، حتى المدير نفسه، يحترمك، هو لا يتعامل حقيقة معك، ولكن يحترمك، الزميلات جميعاً لا يذكرنك إلا بالخير، وداد، ماذا أقول؟ وداد تحبك، أما أنا؟

ويصمت، يرسل زفرة طويلة، يطرق، يتكلم:

– زوجتي تبتكر لي في كل يوم مشكلة، اليوم شراء ستائر، غداً تبديل الأثاث، بعد غدٍ وليمة، وهكذا دواليك، ابني حسان حصل على الشهادة الثانوية بمجموع قليل، وهو يريد التقدُّم إلى امتحانها ثانية، ولا بُدَّ من الدروس الخاصة، أحسُّ كأني بَغْل الطاحون، عيوني مغطاة، وأنا أدور وأدور في حلقة مفرغة.

أشدُّ على كتفه، أقول له:

– لا، يا أستاذ إسماعيل، أنت من معدن أصيل، وما يزال فيك الخير، كل الخير، ومثلما أوصيتك بوداد، أوصيك بروحك.

– روحي بعتها منذ زمن.

ويشير إلى فوق، حيث مكتب المدير، فأعلق:

– لم يضطرك إلى بيعها، أنت عرضتها عليه، بل أنت شجعته.

– هذا صحيح، ولكن ما الحلّ؟

– تستردُّ روحك.

– والثمن؟

– ما ستربحه أكثر مِمّا ستخسره، بل لا مجال هنا لحساب الربح والخسارة، لأنَّك ستسردُّ روحك.

– سأحاول.

وأهمُّ بالمضيّ، فيهتف:

– والقهوة؟

ألتفت، أنظر إلى القهوة، أتأملها، أمسك الفنجان، أرفعه إلى فمي، أتكلم:

– سأشربها على شرط أن تفعل، لا أن تحاول.

– أعدك.

وأحتسي الفنجان دفعةً واحدة.

وأهمُّ بالخروج، ولكن أتوقف، ألتفت إليه ثانية، أقول له:

– أستاذ إسماعيل، أنت تعلم من غير شك، أني أعمل في مخزن للأدوية، أداوم فيه كلَّ يوم خميس، مساء فقط، لبضع ساعات، أقوم فيها بجرد الموادّ، العمل أنت قمت أكثر من مرة بما يشبهه، عندما كنتَ تكلَّفُ بالجرد السنوي.

ويرد:

– نعم، نعم.

– يسرني أن أرشِّحك لدى مدير المستودع للعمل بدلاً مني، ما رأيك؟

ويشدُّ على يدي مؤكداً امتنانه، فأضيف:

– إذن نلتقي اليوم الساعة السابعة في مقهى النجمة، الواقع هنا أمام المديرية، ثم ننطلق معاً إلى المخزن، هو قريب أيضاً.

– سأكون بانتظارك.

وأخرج من مكتب إسماعيل، أنعطف، وإذا وداد في عمق البهو، مقبلة نحوي، أسرع إليها، أشدُّ على يدها، أهتف:

– وداد، وداد، كيف خرجت من المستشفى؟

– أستاذ رياض، هل وافق المدير؟

– أريد أن أطمئن عليك، كيف خرجت؟

ترد، وهي تبتسم:

– كما ترى، على قدمَيّ.

– ولكنَّني وعدت الطبيب بالمرور عند الثانية والنصف، لأخرج بك.

– هأنذي أخرج وحدي، أخبرني، هل وافق المدير؟

– أخبريني أنتِ أولاً، ماذا قال الطبيب؟

– أوه، أستاذ رياض، إلى متى سنظل نتجادل؟ ماذا تتوقع أن يقول لي الطبيب غير ما قال لك؟ لا شيء، مجرد إرهاق، أنا يجب أن أسألك، أنا ما جئت إلى هنا إلا للاطمئنان عليك، أخبرني أرجوك، هل وافق المدير؟

– ستعرفين كلَّ شيء بعد قليل.

– أستاذ رياض، أنت تثير أعصابي، إذا لم يوافق، فسوف أدخل الآن عليه.

– وداد، أنا مسافر غداً في قطار الساعة الثالثة إلى العاصمة.

– أهنئك، أهنئك.

وتشدُّ على يدي مصافحة، ثم تمسح دموعها، وتسأل:

– ولكن كيف وافق؟

ونمضي معاً، نمشي في البهو، وأنا أقول لها:

– هل تصدِّقين يا وداد إذا قلت لك: إنَّ المدير نهض لوداعي، ومشى معي إلى باب مكتبه، ووراء الباب شدَّ على يدي، وقال: "أتمنى لك التوفيق"، وصمت برهة ثم أضاف: "أنت تعلم أن تكليفي بالإدارة ينتهي العام القادم"، لذلك أتمنى أن تسعى إلى تأمين عقدٍ لي في اليمن"، هكذا كان يتكلم يا وداد، كأنه حمامة وادعة، هذا هو الإنسان في ضعفه الإنساني الجميل، الذي هو قوته الحقيقية، لا في

صلفه وغروره وتمركزه وراء طاولة الإدارة، هذه قوة ظاهرة، ولكنَّ وراءها ضعفاً حقيقياً.

وتعلق:

– هكذا بدا لك، يا أستاذ رياض، لأنك مسافر.

– لا يا وداد، صدقيني، المدير نفسه أضعف مني ومنك، هو الآخر مجرَّد موظَّف مثلنا، ولكنه يحمل من الهموم والمشكلات أكثر مما نحمل، هو أجدر منا بالعطف والشفقة، صدِّقيني يا وداد، اليوم فقط، وبعد هذا العمر، عرفت ذلك.

أمام باب المكتب تقف لتقول:

– أنت طيب القلب، يا أستاذ رياض.

ونترك المكتب، نمضي معاً، نمشي الهوينى في عمق البهو، وأنا أرد:

– وليكن، ليس خطأ، لذلك، بعد خروجي من مكتب المدير شعرت بالندم، لأنَّني كنت أشعر نحوه بشيء من البغض، أو الكراهية، ولكن عزائي أنني إنسان أيضاً، وأنَّ لي ضعفي.

– وإسماعيل؟ لماذا كنتَ في مكتبه؟ وهل هو الآخر مسكين وبائس، ويستحقُّ العطف والشفقة مثل المدير؟

– إسماعيل، يا وداد، أكثر نقاءً وبراءة، هو من معدن أصيل، كما قلت لك، ولقد وعدني بشرفه، وصداقتنا، أن يكفَّ عن كلِّ تصرفاته السابقة.

ونبلغ نهاية البهو، نقف معاً أمام النافذة المطلَّة على المدينة.

– ياه، كم أنت رائعة يا حلب، طوال ثلاثين سنة، كنت كلَّ يوم أقف ههنا، ولكني أشعر الآن كأنني أطلُّ على حلب أول مرة، صدقيني يا وداد، كانت لا تطالعني سوى الأسطحة المكتظة بغابات من هوائيات التلفزيون والمداخن المسودة بالهباب والسخام، ولا أرى سوى مكاتب المحامين وعيادات الأطباء، وسرعان ما أرجع إلى المكتب،

هارباً مما تذكِّرني به تلك المكاتب والعيادات من مشكلات الحياة وآلامها، ولكن، انظري يا وداد، كم حلب كبيرة وواسعة وجميلة؟ هناك، في الشمال الغربي، متنزه السبيل، وبجواره شقَّة أختك، وإلى الغرب قليلاً مستشفى الجامعة، حيث زرنا صالح، وهذا مبنى شهباء الشام، حيث سهرنا أول مرةٍ معاً، وهذا هو برج الإذاعة مطلاً على المدينة، وبجواره في شارع الإذاعة منْزلكم. التفتي إلى شمالك يا وداد، انظري هناك إلى القلعة، وهي تشمخ في الطرف الشرقي، ووراءها يقع منْزلي، وأمسِ كنت أحدثك عنه. ما أبهى القلعة؟ كم هي رائعة وشامخة، حيثما سرنا في المدينة نراها، تطلُّ علينا من كلِّ الأطراف، وعندما نقبل على حلب، من أي جهة كانت، نراها تتوسَّط المدينة، ومن حولها تنتشر الأحياء والبيوت والمساجد والأسواق والعمارات، كالأم هي أو كالجدة، تلمُّ من حولها أولادها وأحفادها، تعطف عليهم، تظللهم، ترعاهم. أحسُّ يا وداد الآن كأنَّني بدأت أميل إلى تصديق قصة البقرة الشهباء، وإبراهيم الخليل يصعد بها إلى القلعة كلَّ يوم، ويتجمع الناس، ينتظرون أن يسقيهم من لبنها، وبعضهم يسأل بعضاً: حَلَبَ الشهباء؟ حَلَبَ الشهباء؟

وداد تنظر إلى الشارع من وراء الزجاج، وتسألني:

– الحافلة الكهربائية كانت تمرُّ بهذا الشارع؟ أليس كذلك أستاذ رياض؟

– بلى، في هذا الشارع – شارع القوتلي – كانت الحافلة تمر، وهناك، قبل سينما حلب بقليل كانت تقف، انظري، هذه سينما فؤاد، وتلك سينما الكندي، يوم كنت شاباً كان اسمها سينما الشرق، وذلك مقهى النجمة، وهناك مطعم أبو نواس، وهذه محلات الألبسة والمرطبات والصحف والمجلات وأشرطة التسجيل والفيديو تتزاحم وتتنافس، كم الشارع جميل وحافل بالحياة؟ ضوضاء المارة وصخب

السيارات وضجيجها إيقاع ناعم يتسرب إليَّ من وراء الزجاج، فأشعر به بهيجاً ممتعاً.

– هذا لأنك على وشك السفر.

– ربما، فالإحساس يقوى دائماً عند النهايات، وربما، لأنك بجانبي يا وداد.

– أنا؟

– أجل، ليس عجيبا أن يحسَّ المرء بجمال الحياة إذا كان على وشك السفر، أو كانت وداد بجانبه، صدقيني، طوال ثلاثين عاماً، كل يوم كنت أمر بهذا الشارع، وأنا قادم إلى المديرية، وأنا آيب منها، ومنذ ذلك الوقت، وحتى الآن، بل قبل ذلك، كان هذا الشارع، وسيبقى، من أكثر شوارع المدينة متعة، وأشدها ازدحاماً، كل الناس يقصدونه للفرجة والمتعة والتسلية، ولشراء الحاجات، ومراجعة الأطباء والمحامين والمديريات، في الأيام كلِّها هو مزدحم، وليس في أيام الأعياد والمناسبات فحسب، ولكن مع ذلك كلِّه، لم أشعر ببهجته وجماله على النحو الذي أشعر به الآن، ربما شعرت ببهجته في السنوات الأولى من عملي في المديرية، قبل أن تُلغى الحافلة، إذ كنت أنتقل بها بين بيتي وعملي، ولكن في الأحوال كلِّها، لم يكن كشعوري الآن.

تنظر إليَّ مدهوشة، وتسأل:

– والسبب؟

– الوظيفة، الوظيفة يا وداد، أعْشَتْ قلبي وبصري، وأثقلتني بالهموم والأعباء، كل يوم لا بُدَّ من قلق جديد، إزعاج جديد، مشكلة جديدة، ولا فرصة للتأمل، بل لا فرصة لالتقاط الأنفاس.

وأنظر إلى الطرف الشرقي، أرى القلعة شامخة، وأضيف:

– ومع ذلك يا وداد، تبقى الحياة جميلة، وجديرة أن تعاش والأجمل هو البلد والأهل والأصدقاء والأحباب، هؤلاء هم الذين

يجعلون الحياة جميلة، ولذلك لا بُدَّ من الشوق إليهم، والحنين إلى البلد، فهو الذي يكبر في القلب كلما ابتعدنا عنه، وعزائي أني لن أغيب عن بلدي إلا لأرجع إليه وأنا أقوى، وعزائي أيضاً أنني مسافر للعمل في بلد عربي، شعبه شعبي، ولغته لغتي.

وداد تضيف:

– حقيقة، أنت مسافر يا أستاذ رياض، إلى بلاد اليمن السعيد، إلى سدِّ مأرب، إلى النبع الذي انطلقت منه كلُّ الهجرات العربية الأولى.

– ولا تنسَيْ أيضاً أنني مسافر إلى الموطن الأول للبُنّ.

– وستشرب القهوة هناك، وتذكرني.

– لا شك في ذلك، يا وداد، أنت دائماً في القلب.

ويخيِّم صمت هادئ، تتسرب خلاله ضوضاء السيارات وضجيج الشارع، أحسها وسوسات ناعمة، وأنا أنظر إلى وجه وداد، وقد علاه شحوب مقدَّس.

أهمس:

– وداد، يسرني أن نبقى هنا أمام النافذة، ولكن.... أرجو أن نمضي إلى المكتب لنودع الزميلات.

ونمضي إلى المكتب، وداد تلقى ترحيباً حاراً، العم محمود يوزع القهوة.

منى تسأل:

– لم تخبرينا يا وداد، شغلت بالنا كثيراً، لماذا تأخرت؟

– أمر بسيط جداً، مجرد إرهاق، ولكنَّني راجعت المستشفى، وأجريت الفحوصات والتحاليل المطلوبة.

– قلقنا عليك كثيراً.

– كنا نتمنى لو اتصلتِ بنا بالهاتف لنطمئنّ.

هكذا تتكلم الزميلات، وداد ترد:

– شكراً لهذا الاهتمام بي، ولكن أرجو ألا ننسى أنَّ الأستاذ رياض سيغادرنا، أنا باقية.

نرشف القهوة.

وأخرج السيكارة التي كانت وداد قد قدمتها إلي، أرفعها بين أصابعي، وأشير إليها، ثم أهمس:

– وداد، أعطيني قداحتك، إذا سمحت.

وتنظر إليَّ مدهوشة، ثم تجيب:

– آه، يسرني أن أخبرك، أستاذ رياض، أنت والزميلات، أنني أقلعت عن التدخين، هكذا نصح لي الأطباء، وللأسف، ليس معي قداحة ولا علبة سكائر.

– وإذن، سأظل أحتفظ بهذا السيكارة، للذكرى.

ثم أودِّع الزميلات، واحدةً واحدة، وأودِّع العم محمود.

وداد تقف في باب المكتب، والدموع في عينيها، تهمس:

– أدعوك إلى العشاء الليلة، في بيت أختي.

– شكراً يا وداد، مائدتك في القلب دائماً، شمعها لا ينطفئ، وردها لا يذبل، رونقها لا ينضب.

تهمس، وهي تسير بقربي في البهو:

– أنت ترفض دعوتي؟

– بل أعتذر، وأرجو بعد ذلك أن تخبريني، هل أنت جادة في الإقلاع عن التدخين؟

– ألا تذكر يوم وقفنا معاً في البهو، ونصحت لي بالإقلاع عن التدخين، ووعدتك أن أقلع عنه ذات يوم؟ هأنذي أفي بوعدي... لأجلك.

أنظر إليها غير مصدق، فتضيف:

– أقسم لك بمكانتك عندي.

أضغط على يدها برفق، وأنظر في عينيها، فتهمس:

– ولأجلك، سأنجز التقرير السنوي الأسبوع القادم، ثم سأترك العمل، لن أنتظر التخرُّج.

– لا يا وداد، ليس الآن الوقت المناسب لترك الوظيفة، استمري في العمل، الزميلات بدأن بالتجاوب معك، وإسماعيل، كما حدثتك، لن يزعجك بعد اليوم، لأنَّ المدير نفسه سيغيِّر علاقته بك.

– أنا على استعداد لأسوأ الاحتمالات.

– لن يحصل شيء من ذلك، مصلحة المدير في سير الأمور بنجاح، ولا أظنه يريد المشكلات داخل المديرية، قد يصطنعها بمقدار ما يخدم مصلحته، ولكنَّه لن يتركها تتطور إلى النقيض، مثل مَنْ يوقد النار ليستضيء بها، لن يتركها تحرقه.

– غير معقول؟

– هذا هو الواقع، لا شيء يبقى على حاله، كل شيء يتغير، وعلينا أن نعرف اللحظة المناسبة، صالح توفِّي، وأنا مسافر، المدير الآن بحاجة إلى جهودك، وسيحاول كسب ولائك، ولا سيما بعد ما رأى صلابة عودك.

وأصمت هنيهة، ثم أضيف:

– المدير يعرف حقيقة عملك، سأل عنك العم محمود، فذكرك بالخير، وأثنى عليك، المدير نفسه أخبرني بذلك، ولكن أرجو ألا تسيئي الظنّ بالعم محمود، على العكس، هو طيِّب ونقيّ، وذكيٌّ بالفطرة، ويقيني أن شهادته فيك هي التي غيَّرت موقف المدير منك.

– لا أكاد أصدق.

– هذا هو الواقع، يا وداد، لذلك يجب أن تكسبي احترام الزميلات، وثقة المدير، ولا تُشغلي بالإزعاجات العابرة، اعملي وكأنك ستبقين في الوظيفة أبداً، ولو كنت ستستقيلين غداً، يقيني أنَّ النجاح سيكون حليفك.

– أعدك بذلك.

– ولكن، لا تكرِّري خطئي، لعلَّ الظروف لَم تساعدني، في الأحوال كلِّها، لا تكرِّري خطئي، لا تغرقي في الكسل الوظيفي، اصنعي آفاقاً غير آفاق الوظيفة، أثبتي نجاحك فيها، ولكن لا تستسلمي لإغراءاتها التافهة، فهي لا تصنع مجداً، أمامك المستقبل كلُّه.

تهمس:

– أعدك، الكوبرا، دائماً.

أضغط على يدها، أحسُّ بها ناعمةً مثلوجة.

– لا بأس، فلتكن كوبرا، ولكن لها جناحا نحلة، وتصنع العسل.

وأسحب يدي من يدها بهدوء.

وأمضي في البهو، وقبل أن أخرج، ألتفت إليها، فأراها ما تزال واقفةً، أحييها بإشارة من يدي، فتردُّ بمثلها، وفي معصمها أرى سوار الكوبرا.

- ١٤ -

نصل إلى محطة القطار حوالي الثانية والنصف، أنا وزوجتي وابني عماد وابنتي هدى، نقف على رصيف المحطة، ننتظر.

الدقائق تمرُّ كالساعات، ضوضاء المودِّعين والمسافرين، وضجيج الباعة والحمالين وصخب القاطرات، كلُّ ذلك مطارق ترهق الأعصاب، وتزيد الإحساس بثقل الثواني والدقائق.

ويقبل علينا إسماعيل.

ويقرع جرس المحطة، ويبدأ المسافرون بالصعود إلى عرباتهم، أعانق أفراد الأسرة، أشدُّ على أيديهم، أعانق إسماعيل، فيشدُّ على يدي، ثم يمضي بي إلى جانب القطار، ويهمس بصوت أقرب إلى الجلجلة، كعادته:

- **وأنا أدخل المحطة، بدا لي كأني لَمحت وداد.**
- **أنت لا تكفُّ عن دعاباتك، على كل حال، أوصيك بها خيراً.**
- **كما وعدتك.**

وأحمل حقيبتي وأدخل العربة، ويصفر القطار. الدموع تملأ المحاجر، ومن وراء الزجاج أشير مودِّعاً. القطار يسير، المحطة تبتعد، وأنا وحدي. لا أكاد أصدِّق، كيف يحصل هذا في بضعة أيام؟ وأنا ملتفت إلى النافذة، أحسُّ بباب الحجرة يفتح، لا أبالي.

ولكنَّ سَكْبَ عطر فاغمٍ يغمرني، وألتفت، أنهض.

- **وداد؟**

وتقعد أمامي، والدموع تنهمر من عينيها.

- **هل أنت مسافرة معي؟**
- **ليت لي ذلك.**
- **وإذن؟**
- **سأنزل بعد ساعة في المحطة القادمة.**

أحمد زياد محبك